مركز الدراسات الشرقية
ORIENTAL STUDIES CENTER
جامعة القاهرة

التأثيرات العربية والإسلامية في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة اليهودى

تأليف
أ.د/ عبد الرازق أحمد قنديل
أستاذ الأدب العبرى الوسيط

سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية
العدد (٩)
١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م

التأثيرات العربية والإسلامية في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة اليهودى

تأليف

أ.د/ عبد الرازق احمد قنديل

أستاذ الأدب العبرى الوسيط

www.al-maktabeh.com

سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية

يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

تحت إشراف أ.د/ محمد خليفة حسن

* الآراء الواردة تعبر عن وجهة نظر كتابها ولاتعبر بالضرورة عن رأى المركز

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالى جوهر

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د. عبد الله التطاوى

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديـــم

يسر مركز الدراسات الشرقية أن يقدم هذا الإصدار الجديد من بين إصدارات سلســلة "فضــل الإسلام والحضارة الإسلامية على اليهود واليهودية" ويتناول هــذا العمل دراسة التأثيرات العربية والإسلامية فى كتاب الهداية إلى فرائض القلــوب لابن فاقودة اليهودى الأندلسى وقد تناول الكتاب حياة ابن فاقودة فى البيــئة الإسلامية الأندلسية ، وأوضاع اليهود الدينية والاجتماعية والفكرية مع التركــيز علــى اختلاف المؤرخين حول حياته وفكره بسبب ندرة المعلومات عــن ســيرته وأولــت الدراسة اهتماماً بالتعريف بطبعات كتاب الهداية إلى فــرائض القلــوب "ونشــراته المخــتلفة وترجماته المتعددة . وبعد التعريف بالمؤلف وبكتابه انطلق العمل إلى تحديد المؤثرات الإسلامية وذلك من خلال الــتعريف بالمصادر العربية والإسلامية التى اعتمد عليها ابن فاقودة وتأصيل مادتــه وردهــا إلى مصادرها فى الثقافة الإسلامية، وتبدو هذه المهمة العلمية ضرورية فى ظل التعتيم على هذه المصادر فى ثنايا الكتاب حيث حرص ابن فــاقودة على عدم ذكره مصادره العربية والإسلامية فى الوقت الذى كان فيه حريصــاً على ذكره مصادره الأخرى غير الإسلامية . وقد تمكن المؤلف من تحديد الألفاظ والمصطلحات العربية والإسلامية ، والمصادر اللغوية والأدبية، وتحديــد المقولات والمؤثرات الإسلامية والأحاديث النبوية والأحاديث القدسية الــتى اســتفاد مــنها ابن فاقودة . وقد حدد العمل علاقة ابن فاقودة . ببعض الفــرق والتيارات الإسلامية ومن بينها علاقته بإخوان الصفا ، وكذلك علاقته

بـــبعض العلمـــاء المسلمين ، وتأثره خاصة بفكر أبى حامد الغزالى والحارث المحاســبى وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامى فى مجالات الدين والتصوف والأخـــلاق ويســـر مركـــز الدراسات الشرقية أن يتوجه بالشكر الجزيل إلى الأســـتاذ الدكتور عبد الرازق أحمد قنديل أستاذ الأدب العبرى الوسيط بجامعة الأزهر على مساهمته العظيمة فى توضيح فضل الإسلام وحضارته على ابن فاقودة . من خلال هذه الدراسة العلمية عن كتاب "الهداية إلى فرائض القلوب" وقـــد أكدت هذه الدراسة على تنوع التأثير الإسلامى على الفكر اليهودى فى العصـــر الوســـيط . فقد تجاوز هذا التأثير حدود المجال الدينى العقائدى إلى مجـــالات التصـــوف والأخـــلاق ، وتجـــاوز حدود التأثير على الفرق الدينية الـــيهودية إلـــى التأثير على المتصوفة اليهود مما يؤكد عمق الصلة اليهودية بالثقافة الإسلامية ، وأهمية الإسلام فى تطوير الفكر الدينى اليهودى.

ولاشـــك فى أن هذه الدراسة ستكون مفيدة بالنسبة للمتخصصين والباحثين فى الدراســـات الدينـــية الـــيهودية ، وفى مجال مقارنة الأديان ، وعلاقة الثقافة اليهودية بالحضارة الإسلامية ، والعلاقات اليهودية الإسلامية بشكل عام .

والله ولى التوفيق

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة

أ.د. محمد خليفه حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كان من الإنصاف أن تفخر كل أمة بتراثها ، ويرفع أبناؤها هاماتهم زهواً وفخاراً بأمجاد أجدادهم وسمو حضارتهم ، فإن الأمة الإسلامية لابد لها أن تقف في مقدمة صفوف تلك الأمم بما قدمته للبشرية من حضارة ، وتراث ديني وفكري لا ينضب معينه ، ولا يجف له نبع ، وإذا كان البعض قد حاولوا أن يحجبوا حقائق ماضي تلك الأمة المشرق ، فتلك دعوة لأحفادها أن يزيحوا عن هذا الماضي غبار التعصب لكي يسطع من جديد ، ويعود الحق إلى أهله مشرقاً كما كان.

أقول ذلك وكلي فخر واعتزاز بعد أن وفقني الله وتمكنت بجهد متواضع أن أقف على بعض من عظمة تراثنا العربي والإسلامي الذي عجزت أمامه عقليات لها مكانتها بين طوائفها ، ولم تتمكن من أن تنحو نحوه ، أو توجد مثله في تراثها ، فما كان منها إلا أن سطت على لبه بعد أن حاولت طمس مصادره ، ونسبته زوراً إليها ، وتباهت به تراثاً لطائفتها تناقلته جيلاً بعد جيل. وكان لابد أن يعود الحق يوماً لأصحابه ، وينسب المجد لمبدعيه ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً ، فالتراث كثير ، والفكر عميق منتشر في أكثر من مصدر. غير أن الحرص على إظهار الحق كان أقوى وأشد.

وبهدى من الله ، كانت بدايتي مع كتاب " الهداية إلى فرائض القلوب " لمؤلفه يحيا بن يوسف بن فاقودة ، منذ كنت أعد أطروحتي للحصول على درجة الدكتوراه ، ومن جزئياتها التعرض لصاحب هذا الكتاب في عجالة سريعة.

وجمعت حينذاك ما أمكنني جمعه عن هذا المؤلف اليهودي الديانة ، الأندلسي الموطن والنشأة ، واطلعت على ما أمكنني الوقوف عليه من مصادر في ذلك الوقت ، غير أن أمر الكتاب نفسه ما زال عالقا في ذاكرتي ، وتاقت نفسي للحصول على أصل الكتاب ، ولكن من أين؟ وكل ما وصلني وقتها معلومة تقول أن آخر طبعاته كانت عام ١٩٠٧ م باللغة العربية التي كتبت بها ، وله ترجمة عبرية تمت في عام ١١٦١ م ، وتساءلت أين تلك الطبعة؟ وبحثت ولم أتلق جواباً أو نتيجة لبحثي.

ومع ذلك لم تفتر العزيمة وإن كان التنفيذ قد تأخر بعض الوقت ، فما كتب عن الكتاب ومحتواه وصاحبه جعلني أشد حرصاً على الحصول عليه.

وبعد مجهودات عديدة ، وسنوات انتظار أعترف أنها طالت فتح الله أبواب رحمته ، وتمكنت من الحصول على الترجمة العبرية للكتاب السابق الإشارة إليها والتي قام بها المترجم اليهودي " يهودا بن تبون " في القرن الثاني عشر. وقرأتها مرات ، وراودتني فكرة نقلها إلى العربية ، بيد أنني وجدت العمل ضخماً وحساساً في نفس الوقت ، فهو يمس معتقدات وشرائع خشيت على نفسي الخوض فيها دون استعداد وتأهب فكري وعلمي لها ، ناهيك عن أن الكتاب أصله الأول مكتوب باللغة العربية ، وأنا في أمس الحاجة إلى الأصل قبل الترجمة.

وانتظرت ولم يطل انتظاري هذه المرة فقد حصلت على نسخة حديثة الطبع للكتاب بلغته العربية ولكن بأبجدية عبرية ، مع ترجمة عبرية حديثة. وكان سروري بهذه الطبعة لا يقدر. وعكفت على قراءتها الأولى فهالني ما بها ، وأحسست أنني لا أقرأ فكراً يهودياً على الإطلاق ، بل إن ما أقراه لا يمت لليهودية بصلة ، وأنني أقرأ فكراً إسلامياً خالصاً ، ولو أننا حذفنا بعض فقرات

العهد القديم التي في ثنايا الكتاب ما استطاع أحد أن يقول أن كاتبه يهودي مفكر شغل أعلى المناصب الدينية والقضائية في طائفته اليهودية.

ولجبرني هذا الإحساس على أن أعيد قراءة الكتاب مرة ثانية بشيء من الروية ، وتأكدت لي نظرتي الأولى إليه ، وزاد عليها أنني تحسست فيه أقوالا إسلامية بنصها ذكرها المؤلف دون أن ينسبها لقائليها ، ولمسكت بأول خيط في ذلك عندما قرأت في أحد المراجع ما جاء به مؤلفه من فقرات من كتاب الهداية وما يقابلها في أحد الكتب الإسلامية المعروفة. وعندما عزمت على العودة لقراءة أخرى في هذا الكتاب ، فتح الله عليّ بوصول الطبعة التي طبعت في ليدن عام ١٩٠٧ م وهي بأبجدية عربية مع مقدمة لها باللغة الألمانية أعانني المخلصون من الإخوة والزملاء على التعرف على فحواها والتي أعترف أنها ساعدتني كثيراً ، وفتحت أمامي السبل وإن كانت قد ضاعفت من مشقة العمل.

وبعد أن توفرت لدي أربع نسخ لكتاب الهداية لابن فاقودة وهي:

أولاً: النص العربي والذي طبع لأول مرة في ليدن عام ١٩٠٧ م وكان الانتهاء من طبعه في عام ١٩١٢ م وهو مطبوع بالحروف العربية.

ثانيا: الترجمة العبرية لمخطوطة الكتاب والتي تمت ترجمتها من العربية التي كتب بها مؤلف الكتاب وإن كانت بأبجدية عبرية ، وقد قام بهذه الترجمة يهودا بن تبون المترجم اليهودي المعروف وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي مع بعض تعليقات وتصويبات قام بها د.سفروني.

ثالثاً: ترجمة عبرية حديثة طبعت مع نص الكتاب المكتوب بالعربية بأبجدية عبرية وقد قام بهذه الترجمة ووضع هوامشها د. قافح.

رابعاً: بقايا ترجمة عبرية أخرى لأجزاء من الكتاب تمت أيضا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

ومع ما توفر لدي من مصادر ومراجع أخرى سواء باللغة العربية أو بلغات أخرى استمر العمل , وعكفت على ما لدي ، وإن كنت قد أحسست بصعوبة العمل وضخامته ، وكنت أعزف عن الاستمرار مرات لولا أنني كنت قد قطعت شوطا لا بأس به خشيت أن يهمل ، وأخيراً استقر في وجداني أن أتعرض فقط لجزئية واحدة وهامة في الكتاب تكون منعطفا يستطيع من يرغب الإتمام بعد ذلك أن يدلف منها ويغوص في أعماق الكتاب كيفما شاء ، وإن كنت أعتقد أن هذا الكتاب يحتاج إلى فريق عمل متكامل يكون على علم تام بالفلسفة ، وعلم الأخلاق ، والعقائد ، واللغة العبرية ، والديانة اليهودية ، والفكر الإسلامي ، وعلم الحديث وعلوم القرآن وتفاسيره والأدب العربي بصفة عامة وذلك حتى يخرج الجهد في صورة علمية متكاملة.

ومن هذا المنعطف حددت وجهتي بأن أتناول فقط وبإيجاز غير مخل- الحديث عن" المصادر العربية والإسلامية في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب " وحصرت جهدي في تناول هذا الموضوع مقسما إياه إلى مباحث ثلاثة على النحو التالي:

المبحث الأول:

وعنوانه" بحيا بن فاقودة وعصره " تحدثت فيه عن مؤلف الكتاب وبيئته والظروف التي صاحبت مسيرته ، واختلاف المؤرخين حول حياته وفكره بصفة عامة.

المبحث الثاني:

أفردته للحديث عن الكتاب ومضمونه العام ، وكنت قد عزمت على أن أكتب موجزاً لأبوابه إلا أنني قد عدلت عن هذا أملاً في أن تتاح لي أو لغيري فرصة نشر العمل متكاملاً راجياً التوفيق من الله في ذلك. ثم تعرضت لطبعات الكتاب ونشراته المختلفة وتواريخها وترجماته المتعددة ، ثم أشرت باختصار إلى ما بين الترجمات من اختلاف في ترجمات كل من : ابن تيبون ، يوسف قمحي ، يوسف قافح.

المبحث الثالث:

وخصصته للحديث عن المصادر العربية والإسلامية التي استفاد منها ابن فاقودة ونقل عنها مادة كتابه سواء كان نقلاً مباشراً أو غير مباشر ، وفي كلتا الحالتين لم يكن أميناً أمانة علمية دقيقة إذ لم يشر إلى من أخذ عنهم تلك النصوص والأفكار. وهنا أقول إنه بالإضافة إلى عدم أمانته العلمية ، فإنه يفوح منه رائحة العنصرية والتعصب اليهودي المعروف. فقد ذكر المصادر غير الإسلامية وأصحابها ، وأقام حجباً على المصادر الإسلامية وأصحابها. وهذا ما قصدت إظهاره هنا لأثبت لتلك العصبة ومن يقف إلى جانبها أن تلك بضاعتنا ردت إلينا ، وأن عمل ابن فاقودة بهذه الصورة التي هو عليها ليس سوى عمل إسلامي بالدرجة الأولى ، كتبه قبل ابن فاقودة مفكرون مسلمون على أعلى درجة من الفكر والثقافة وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي وأستاذه الحارث المحاسبي ، وليس لابن فاقودة من فضل سوى فضل الجمع والنقل.

وبعـــد.....

فهذا جهد أبتغي به وجه الله والحقيقة ، وأن يكون ممن يصدق فيهم الحديث الشريف" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له ".

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أقول إن مثل هذا التراث الفكري اليهودي الذي أسس ونقل من تراثنا العربي الإسلامي هو تراث كثير ، ومتعدد الاتجاهات ، تمكننا بحمد الله من الحصول على القدر الأكبر منه ، وهو تراث ليس بالهين ومحتاج إلى أن يخرج إلى النور بعد تحقيقه ودراسته ، ويلزمنا جهود متضافرة حريصة على أصالة وعمق تراثها الإسلامي والعربي ، راجيا المولى سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في هذه في وضع لبنة متواضعة ، وشمعة خافتة توحي لأصحاب الهمم بضرورة التحرك واليقظة.

وفى النهاية أهدى هذا العمل إلى روح والدى و أخى الأكبر وإلى أسرتى والله أسأل أن يوفقنا إلى الصواب دائما

المؤلف
أ.د. عبد الرازق قنديل
أستاذ الأدب العبري
بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر

المبحث الأول

اليهود فى الأندلس

أصبح من المتفق عليه بين الباحثين أنه من العسير فهم واستيعاب ما يطلق عليه في العصر الحديث "الفكر اليهودي العربي". وتقييم أهدافه واتجاهاته ومضامينه التاريخية والعقائدية والدينية أيضا دون الإلمام بمعرفة الأرض التي نبت فيها رواد هذا الفكر ومن أي المنابع استقوا ونهلوا ثقافتهم وفكرهم حتى نمت جذوره وثبتت سيقانه وتفرعت أغصانه ونضجت ثماره.

ونعني بداية بهذا الفكر اليهودي العربي ذلك الإنتاج الفكري الذي كتبه اليهود في الأمصار العربية وباللغة العربية أيضا وإن كانت أبجديتها عبرية. أما البيئة التي نقصدها هنا فهي البيئة الإسلامية عامة بكل مقوماتها وأسسها وسماحتها وعصورها ومواطنها أيا كانت شرقية أو أندلسية. وفيما يتعلق ببيئة بحيا بن فاقودة فهي البيئة الأندلسية الإسلامية.

يذكر لنا المؤرخون أن الخلافة الأموية في الأندلس قد منيت في عهدها الأخير ببعض القلاقل والثورات لعل أشهرها ثورة البربر المعروفة في العقد الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي حوالي عام ١٠١٢ أو ١٠١٣م على اختلاف بين المؤرخين في ذلك. وكان من نتائجها أن استقلت الإمارات الإسلامية هناك وتكون ما يعرف في التاريخ بعصر ملوك الطوائف وأصبحت كل إمارة من إمارات الخلافة مملكة مستقلة عن الإمارات الأخرى وما ترتب على ذلك من محاولة إزاحة إحدى هذه الممالك وضمها إلى ما تجاورها الأمر الذي أدى إلى التناحر الذي أدى بدوره إلى أن نشبت الحروب بين مملكة وأخرى على نحو ما حدث بين مملكة غرناطة تحت قيادة مليكها حابوس بن

ماكسن الصنهاجي ومملكة " المرية " بزعامة ابن عباس وزهير حيث انتهى الأمر بمقتلهما وهكذا استمر الحال في تلك الفترة بين شد وجذب ومع ذلك فقد كان عصر ملوك الطوائف عصراً متميزاً فكرياً وثقافياً كما يشهد بذلك المؤرخون.

إلا أن التاريخ دوماً يقص علينا أن دوام الحال من المحال فقد مرت الأندلس قبيل نهاية حكم ملوك الطوائف بل نهاية ذلك العصر كله بفترة يسودها القلق والاضطراب والضعف مما جعل الجبهة المسيحية من الأندلس تعد عدتها وتجهز جيوشها في محاولة للإجهاز على تلك الممالك الإسلامية بدعوى استرداد الأندلس كلها من العرب المسلمين وعودتها مسيحية كما كانت عندما فتحها العرب واستقروا فيها منذ نهاية القرن الأول للهجرة. واستتب لهم الأمر هناك وساد الدين الإسلامي ودخل كثير من مواطني أسبانيا المسيحية في الدين الإسلامي طواعية دون قهر أو إجبار. مما أدى إلى ترحيب أهل الذمة بهؤلاء العرب حتى يخلصوهم من حياة العبودية والإذلال التي كانوا يحيونها قبل قدوم المسلمين إليهم.

ولعل الوضع الذي كان عليه بعض حكام ملوك الطوائف في ذلك الوقت من كثرة الخلافات والمنازعات والحرص الشديد لدى البعض منهم على التوسع ولو على حساب مملكة أخرى مجاورة مما نتجت عنه كثير من الحروب الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور حالات كثيرة من الضعف والخوف لدى تلك الممالك وإحساس بعدم القدرة على مواجهة الجبهة المسيحية في الأندلس الشمالية وترتب على تولد تلك الحالة المضطربة التجاء البعض منهم إلى القوى الخارجية تطلب العون منها على نحو ما فعل " المعتمد بن عباد " حاكم أشبيلية الذي يقول عنه صاحب قصة الحضارة أنه"ظل سنين يؤدي الجزية إلى ألفنسو

السادس ملك قشتالة يشتري بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام...واستخدم الفنسو المال يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة عام ١٠٨٥ م. وأيقن المعتمد أن أشبيلية ستكون الفريسة الثانية. وكانت دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى حد أن عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة جدية." [١]

وهنا فكر المعتمد بن عباد مليا في الأمر وأحس بأنه وحده لن يستطيع صد الحملة المسيحية إذا اتجهت إليه. عند ذلك طلب ابن عباد النجدة من يوسف [٢] بن تاشفين في المغرب. وهو الذي كان يتولى زمام الأمور هناك فما كان منه إلا أن استجاب دون تردد لهذا النداء فجهز جيوشه وعبر بها مضيق جبل طارق حيث تلقى المدد من ملوك الطوائف من مالقة وغرناطة وأشبيلية والتقى بجيوش الجبهة المسيحية , ودارت رحى الحرب بينهما حتى انتهت بهزيمة الجيوش المسيحية في تلك الموقعة الشهيرة والمعروفة بموقعة الزلاقة القريبة من بطليوس وذلك عام ١٠٨٦ م.

وهدأت الأمور في الأندلس إلى حين وعندما استتب الأمر هناك عاد ابن تاشفين أدراجه إلى المغرب ولكن عينه كانت دائما على الأندلس وهو يرى الجبهة المسيحية قد عادت مرة أخرى وجهزت جيوشها استعدادا لمعاودة الكرة والإغارة على الأندلس الإسلامية الأمر الذي حدا بالمعتمد بن عباد وأمراء المسلمين إلى معاودة طلب النجدة من ذلك البطل المغربي زعيم المرابطين.

كان ملوك الطوائف في تلك الفترة قد اشتدت بينهم الفرقة والضعف ولم يعد في مقدورهم التصدي وحدهم لجيوش المعسكر المسيحي , وكان ابن تاشفين يعلم ذلك جيدا لذلك استجاب لنداء المعتمد ومن معه وقد أغراه هذا الضعف منهم بأن يقرر الاستيلاء على الأندلس وإخضاعها لحكمه , وأخذ في تنفيذ هذه الخطة

بعد أن تم له هزيمة العدو المسيحي إذ بدأ بالاستيلاء على الإمارات العربية الواحدة تلو الأخرى إلى أن دخل غرناطة وتم إخضاعها له حوالي عام ١٠٩١ م. وكان بها طائفة كبيرة من اليهود فتوجس هؤلاء اليهود خيفة من هذا الحكم الجديد فما كان من غالبتهم إلا أن آثروا ترك هذه المدينة بل وغيرها من مدن الأندلس التي دانت لحكم المرابطين , واتجه البعض من هؤلاء الفارين إلى الشمال المسيحي ظنا منهم أنهم سيكونون عونا لهم في المرحلة المقبلة. وهكذا استقرت الأوضاع في غرناطة وغيرها من الإمارات العربية تحت زعامة يوسف بن تاشفين وبدأ هناك عصر جديد من عصور الأندلس الإسلامية يعرف في التاريخ بعصر "المرابطين".

فإذا أردنا أن نتعرف على أحوال اليهود في الفترة التي عاشوها قبل عصر المرابطين ونعني بها عصر ملوك الطوائف الذي استتب له الأمر في أعقاب زوال حكم بني أمية في الأندلس على أثر قيام ثورة البربر الشهيرة عام ١٠١٢-١٠١٣ ميلادية , وخراب مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الأموية وهجرة الكثير من أهلها وسكانها. نقول إذا أردنا أن نتعرف على هؤلاء اليهود وأحوالهم فإن الثابت تاريخيا وباعتراف اليهود أنفسهم أنهم كانوا يعيشون في ظل حكم ملوك الطوائف عيشة تتسم باستقرارها وازدهارها وفتحت أمامهم أبواب القصور ونالوا شهرة واسعة في كافة المجالات السياسية والاقتصادية وازدهرت أمورهم الفكرية إلى درجة كبيرة خاصة بعد أن ازدهرت المدرسة اليهودية التي سبق أن أسسها في قرطبة حسداي بن شفروط وأعد لها العديد من علماء اليهود ومفكريهم في مجالات الفكر المختلفة خاصة الدينية منها واللغوية وكانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تطور فكر وثقافة اليهود في عصره وبعد عصره.

وبدأ الكثيرون منهم يأخذون أوضاعهم المميزة داخل المجتمع الإسلامي بصفة عامة وفي بلاط الأمراء وقصورهم بصفة خاصة الأمر الذي أدى إلى ظهور كثير من العلماء والمثقفين في كثير من النواحي الفكرية وخاصة في مجال اللغة والشعر وشروح وتفاسير النصوص الدينية اليهودية وكان الشعر من أبرز الإنتاج الأدبي اليهودي حيث كانت صورته الفنية الجديدة قد استقرت في أذهان شعراء العبرية اليهود وهي تلك الصورة التي أخذها في البداية دوناش بن لبراط ونعني بها قيام القصيدة الشعرية العبرية على نفس الموازين العربية من قوافي البحور والأوزان فيها وانطلقت القصيدة العبرية بعد ذلك وتطورت على يد شموئيل هناجيد[٣] ومن جاء بعده.

ويعتبر مروان بن جناح[٤] القرطبي شيخ نحاة الأندلس قاطبة من اليهود فقد وضع أشهر المؤلفات النحوية لدى اليهود وهو كتاب "التنقيح" بجزئيه الأول وهو كتاب اللمع أما الجزء الثاني فهو كتاب الأصول. هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في هذا المجال. وإذا كانت السمة الفكرية الواضحة عند يهود الأندلس في عصر ملوك الطوائف هي تفوقهم في نظم الشعر العبري والتجديد في أغراضه ونظامه ومضامينه بحيث كاد أن يقترب كثيراً من نظام الشعر العربي السائد في تلك الفترة , إلا أن هناك تياراً فكرياً جديداً بدأ يأخذ مكانه في أذهان بعض مفكري اليهود نتيجة تأثير البيئة العربية الإسلامية سواء الموجودة فعلاً بالأندلس أو الوافدة عليها من المشرق العربي. كان هذا التيار الجديد هو التيار الفلسفي الأخلاقي الذي بدأ يهتم بأمور الفلسفة والإلهيات والأخلاق وما يتفرع أو ينضوي تحت هذه الأمور.

كان للعرب في الشرق السبق في الاشتغال بمثل هذه الموضوعات ثم أخذ هذا الأمر في الانتقال إلى المغرب الإسلامي في الأندلس إما عن طريق هجرة البعض من علماء المشرق الإسلامي إلى بلاد شمال أفريقيا أو عن طريق

الحجاج الذين يخرجون كل عام لأداء فريضة الحج بمكة والمدينة مارين بمواطن عديدة من الأمصار الإسلامية يلتقون فيها بصفوة العلماء والمفكرين في مختلف فروع العلم ثم يعودون بعد ذلك إلى الأندلس محملين بشتى كنوز المعرفة المشرقية. إلى جانب ما يحملونه معهم من نفائس الكتب والرسائل من هناك والتي كان الأندلس في أمسّ الحاجة إلى الوقوف على ما يدور في الحلقة الفكرية بين مسلمي الشرق الإسلامي وبصفة خاصة فيما يتعلق بعلم الفلسفة والإلهيات وأنه في الأندلس الإسلامية كما يذكر أحد الباحثين فقد " قبل ابن حزم [٥] رأي الأشاعرة في " المخالفة " أي اختلاف الله عن جميع المخلوقات. وعلى هذا لا يمكن تطبيق الصفات الإنسانية على الله بنفس المفهوم الذي ينطبق على سائر المخلوقات. ولكن ابن حزم دفع هذا الرأي مرحلة إلى الأمام إذ أنه عارض الأشاعرة الذين هم-رغم قبولهم بمبدأ المخالفة. كانوا يجادلون فيما بعد في أن صفات الله تصف ذات الله,في حين أن مبدأ المخالفة نفسه يجرد هذه الصفات من أي معنى مفهوم لدينا." [٦]

من هنا يعتبر عصر ملوك الطوائف الذي أعقب أحداث الفتنة الكبرى أو ثورة البربر من الفترات المؤثرة في تاريخ الأندلس الإسلامية وبصفة خاصة في النواحي الفكرية والدينية لما عرف عنه من تسامح ونهضة شاملة في العديد من المجالات واتساع المجال لكل صاحب رأي ليعبر عن رأيه بحرية وثقة دون المساس بالمعتقدات الإسلامية خاصة ما يتعلق منها بالفلسفة والإلهيات وهي من الأمور التي كان يوليها علماء الدين والفقهاء منزلة خاصة , فالمتتبع للحركة الثقافية والفكرية في الأندلس من البداية حتى عصر المرابطين يجدها محافظة وكان معظم العلماء يهتمون كثيراً بما يتصل بالأمور الدينية مثل التفسير والتشريع والحديث , كما يهتمون أيضا بنواحي الأدب من شعر ونثر وفي هذا الخضم الفكري نجد أول بداية للفلسفة المغربية في حكم المرابطين " [٧] حيث بدأت هذه الفلسفة في الانتقال من المعتزلة في بغداد إلى مسلمي الأندلس الأمر

الذي ترتب عليه إيجاد صلة بين الفلسفة الإسلامية المشرقية وبين مسلمي الأندلس.

هذا بالإضافة إلى استمرار تدفق الفكر العربي إلى تلك البقعة الإسلامية بشتى ألوانه فقد ذكر بعض الباحثين أن الطبيب الفيلسوف الكرماني قد قام " بنشر رسائل إخوان الصفا , في سرقسطة , وكان الذي أتى بها مسلمة المجريطي , ودخلت معها أفلاطونية حديثة بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها. "[٨] وإن كان هناك من الباحثين من يقول أن الذي قام بإيصال " تعاليم إخوان الصفاء هو مسلم بن محمد الأندلسي في عهد محمود الغزنوي " [٩] وذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر. أما صاحب قصة الحضارة فيذكر أن رسائل إخوان الصفاء التي جمعت شتات أفكار هذه الجماعة , وتضمنت خلاصة العلوم الطبيعية والدينية والفلسفية " قد نالت إعجاب أحد مسلمي الأندلس أثناء تجواله في بلاد الشرق الأدنى حوالي عام ١٠٠٠ م فجمعها واحتفظ بها " [١٠] ولم يذكر المؤلف اسم هذا المسلم.

واستمر التيار الفلسفي الوافد على البلاد الأندلسية في الازدياد يوماً بعد آخر , ووجد لدى الكثيرين من المثقفين والعلماء إقبالاً عليه , وظهر كثير من العلماء الذين اشتغلوا بهذه الفلسفة وأجادوا فيها من أمثال ابن مسرة وابن باجة المتوفى ٥٣٣ هـ ١١٣٨ م والذي كان معاصراً للإمام الغزالي , وكان لابد أن يتأثر كثير من اليهود في الأندلس بتلك الآراء الجديدة الوافدة على مجتمعهم والتي تبحث في أمور الإلهيات والأخلاق وأعمال العقل وواجبات القلوب والجوارح. وأخذ كثير منهم يكتبون رسائل فلسفية تدور في هذه الأطر وعلى نسق ما كان يقوم به العرب. من هؤلاء اليهود نجد أمثال سليمان بن جبيرول[١١] الشاعر اليهودي الذي اتجه إلى الفلسفة وكتب في هذا الشأن كتاباً باللغة العربية باسم " ينبوع الحياة " מקור חיים. ويذكر بعض الباحثين عنه " أنه تأثر بمذهب

ابن مسرة القائم على آراء انباذ قليس الزائف ومذهب الأفلاطونية الحديثة "[١٢]. كما كتب ابن جبيرول أيضاً رسالته المعروفة حول إصلاح النفس وأطلق عليها اسم " תקון מדות הנפש " أي كتاب إصلاح الأخلاق[١٣] .

ولعل هذه الرسالة كانت البداية الفعلية لابن جبيرول في مجال الاشتغال بالأخلاقيات والفلسفة مقتفياً في ذلك أثر سابقيه من علماء المسلمين كما يفهم من مضمون الرسالة.

ويمكن أن نخلص من ذلك كله إلى أن البيئة العامة في الأندلس إلى جانب البيئة الفكرية والثقافية التي كان يعيش فيها اليهود قد أحدثت تطوراً في فكر هؤلاء,وجعلتهم بالتالي يتجهون بعلومهم اليهودية التقليدية إلى طريق جديد تأثراً بما كان يحيط بهم من تطورات نابعة عن ازدهار الفكر العربي الإسلامي وتفرعه وانتشاره,فقد أخذ التفسير الديني للتوراة في تلك الفترة طابعاً مميزاً عن المراحل التفسيرية السابقة , وظهر كثير من المفسرين للنصوص الدينية سواء الموجودة في العهد القديم أو التلمود ولم يكن اعتمادهم في هذه التفاسير على مجرد شرح الألفاظ والفقرات وإزالة غموضها,أو مجرد استنباط الأحكام التشريعية والفقهية , وإنما بدأ الهدف من هذا التفسير يأخذ منهجاً وأسلوباً آخر هو الغوص إلى جوهر العقيدة اليهودية نفسها في محاولة منهم لإثبات أن هذه العقيدة وما تتضمنه لا تتعارض أبداً مع المعطيات العقلية , كما أن الدين والفلسفة لا يتعارضان.

ومن هذا المنطلق الفكري الجديد على العقلية اليهودية أخذ علماؤهم يشتغلون بالبحث والدراسة حول العلاقة بين العقيدة اليهودية وبين العقل بهدف التوفيق بينهما. وكان من نتاج ذلك أن أخذ البعض منهم يبتعدون في كتاباتهم عن الماديات الدنيوية إلى حد كبير ويتجهون إلى البحث في عالم الروحانيات

والأخلاقيات الصوفية , ولذلك نقول إن عالم الثقافة الإسلامية الثري بأجمعه في العصور الوسطى كان مفتوحا على مصراعيه أمام هؤلاء اليهود يأخذون من بحره ما يشاءون سواء كان ذلك في العلوم أو الطب أو الأدب أو في مجالات الفلسفة والأخلاقيات. كما أن الظروف التي كانت سائدة في هذه الفترة كانت كلها مهيأة لظهور أمثال يحيا بن يوسف بن فاقودة الذي دخل هذا المجال مسلحا بفكره اليهودي ومزودا بثقافة الفكر الإسلامي ومطلعا على الفكر الفلسفي اليوناني الذي نقله العرب إلى لغتهم العربية وساعده على ذلك كله إجادته للغة العربية إلى جانب لغته العبرية وخاصة الدينية منها. فمن هو يحيا بن فاقودة؟ وما هو دوره في مجال العلوم الإلهية والأخلاقيات وإلى أي مدى يمكن أن نصنفه؟هل كان مبدعا خلاقا أم كان ناقلا متأثرا بعلوم غيره وإلى أي حد كان أمينا أمانة علمية في أخذه عن الغير؟؟

ذلك ما نحاول أن نلقي عليه الضوء في الصفحات التالية.

بحيا بن يوسف بن فاقودة:

إذا كنا نعتبر أن سليمان بن جبيرول واحداً من أوائل المفكرين اليهود وشعرائهم الذين عاصروا عصر ملوك الطوائف منذ بدايته , ولم يمهله القدر ليشهد نهايته , وأنه قد تزود من فكر وثقافة هذا العصر في الأدب والفلسفة والأخلاقيات , وأنه بدأ خطاه الأولى نحو الاشتغال بهذه الثقافات الجديدة وظهر ذلك في أشعاره وفي نثره الفلسفي ,فإننا في نفس الوقت نجد أنه قد أتى من بعده من زاد اهتمامه بهذا الفرع من فروع المعرفة , ودون فيه أشهر ما عرفه الفكر اليهودي الأخلاقي والفلسفي بعد كتاب " الأمانات والاعتقادات " الذي كتبه سعديا سعيد الفيومي أشهر مفكري يهود بغداد في القرن العاشر الميلادي , والذي وضع فيه خلاصة الفكر المعتزلي وآراء المتكلمين في عصره.

لقد جاء بحيا بن يوسف بن فاقودة " בחיי בן יוסף בן פקודה " بعد سليمان بن جبيرول على اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ حياته , وهل هو سابق أو معاصر لابن جبيرول أم أنه جاء في فترة متأخرة عنه على ما سيأتي تفصيله.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من الغريب أن ابن فاقودة لم يحظ في عصره بشهرة واسعة مثل غيره من مفكري وشعراء اليهود, إذ لم يذكر معاصروه أية تفاصيل عن حياته ومكانته الاجتماعية والفكرية في قومه , الأمر الذي أوجد صعوبة بالغة لدى كثير من الباحثين المحدثين الذين حاولوا أن يلقوا الضوء على حياته ونشأته وفكره وموقعه بين مفكري اليهود في عصره. واختلفت الآراء وتضاربت حول ذلك خاصة ما يتعلق منها بسنة مولده أو وفاته,الأمر الذي أدى إلى عدم إمكان تحديد عدد السنوات التي عاشها,وفي ظل أية ظروف عاش تلك

السنوات؟... ومن أولئك الذين تلقى تعليمه على أيديهم والذين عاصروه بعد ذلك وكان لهم أثر في فكره ومنهجه؟ومن هؤلاء الذين جاءوا من بعده وكان له تأثير عليهم.. تساؤلات كثيرة تحتاج إلى إجابات شافية واضحة,غير أن الواقع الفعلي يقول إن كل ما لدينا عن حياة ابن فاقودة لا يخرج عن كونه استنتاجات علمناها من خلال ما كتبه الباحثون عنه وعن كتابه الوحيد الذي كتبه في حياته.

إن ما كتب عن حياة ابن فاقودة نفسه من الواضح أنه يزخر بالخلط والاضطراب والتضارب في الأقوال إذ نجد بعض الباحثين قد سبق أو ربما عاش عصر سليمان بن جبيرول ومن هؤلاء ما نقله ناشر النسخة العبرية لترجمة يهودا بن تبون لكتاب ابن فاقودة " الهداية إلى فرائض القلوب " . الذي أسماه بالعبرية " חובות הלבבות " حيث قال " إن كوفمان يعتقد- دون استناد إلى أدلة كافية- أن ابن جبيرول قد تأثر من الرابي بحيا وليس العكس وبناءاً على ذلك أخرج طبقاً لرأيه- أن الرابي بحيا كتب كتابه قبل ١٠٤٥ م وهي السنة التي كتب فيها رسالته المعروفة " תקון מדות הנפש " إصلاح النفس لابن جبيرول"[١٤]. وهذا يعني - طبقاً لهذا الرأي- أن بحيا بن فاقودة قد عاش في نفس الفترة تقريباً التي كان يعيش فيها الشاعر سليمان بن جبيرول.

والجدير بالذكر أن ناشر الكتاب أيضا قد ذكر العديد من آراء الباحثين الذين سبقوه والذين اعتقدوا فعلاً أن ابن فاقودة قد عاش في نفس الفترة الزمنية التي عاشها سليمان بن جبيرول أو ربما قبله[١٥]. ومن الذين يؤيدون تحديد عصر ابن فاقودة بنفس عصر كل من مروان بن جناح القرطبي وسليمان بن جبيرول ما جاء في كتاب مرجوليس من أن ابن فاقودة " معاصر للنحوي مروان بن جناح والشاعر الفيلسوف ابن جبيرول "[١٦].

ومما لاشك فيه أنه كانت لآراء هؤلاء الباحثين تأثيرها الواضح على كثير من الباحثين اليهود وخاصة أولئك الذين يهتمون بالأدب العبري في العصر الوسيط وخاصة في الأندلس فقد كتب أحدهم دراسة مستفيضة عن مدى تأثر شعراء الأندلس بالمضامين التي ضمنها بحيا بن فاقودة كتابه الهداية إلى فرائض القلوب قال فيها: " وكان أول من كتب قصائد تتشابه في أفكارها مع الأفكار التي وردت في كتاب الهداية هو سليمان بن جبيرول في قصيدته: قبل أن أكون جاءتني نعمتك. " حيث يقول فيها:

סְרָם הָיוּתִי חַסְדְּךָ בָּאנִי — הַשֵּׁם לִיֵּשׁ אַיִן וְהַמְצִיאַנִי
מִי הוּא אֲשֶׁר רִקַּם תְּמוּנָתִי? — וּמִי עֲצָמִי בְּכוּר יָצַק וְהִקְפִּיאַנִי?
מִי הוּא אֲשֶׁר נָפַח נְשָׁמָה בִּי — וּמִי בֶּטֶן שְׁאוֹל פָּתַח וְהוֹצִיאַנִי?
מִי נְהָגַנִי מִנְּעוּרַי עַד הֵלֹם? — מִי לִמְּדַנִי בִּין וְהִפְלִיאַנִי
אָמְנָם אֲנִי חֹמֶר בְּקֹרֶב יָדֶךָ — אַתָּה עָשִׂיתַנִי אֶמֶת לֹא אֲנִי
אוֹדֶה עָלַי פִּשְׁעִי וְלֹא אֹמַר לָךְ — כִּי הָעֲרִים נָמַשׁ וְהִשִּׁיאַנִי
אֵיכָה אֶכָּחֵד מִמְּךָ חַטְאִי הֵלֹא — סְרָם הָיוּתִי חַסְדְּךָ בָּאנִי

ونجد أن هذه القصيدة دعوة لتنفيذ الواجبات التي أوصى بها بحيا الإنسان "[١٧].
وترجمة الأبيات هي:

قبل أن أكون جاءتني نعمتك ∴ يا من أوجدتني من العدم
من ذا الذي رقم صورتي؟ ∴ ومن وضعني في مكان ضيق؟
من ذا الذي نفخ في نسمة ∴ ومن من أعماق الظلمة أخرجني؟
من دعاني منذ صباي إلى اليوم ∴ ومن للفهم علمني وسحرني
إنني بحق طينة بين يديك ∴ وأنت صنعتني حقيقة ولست أنا

أعترف لك بخطاياي ∴ ولا أقول إن ثعبانا قد حملني
كيف أخفي عنك إثمي ∴ ألم تسبق نعمتك وجودي

ويفهم من عبارة ميرسقي واستشهاده بهذه الأبيات من إحدى قصائد ابن جبيرول أن ابن فاقودة قد كتب كتابه هذا قبل أن يكتب سليمان بن جبيرول قصيدته وأنه قد ضمن هذه القصيدة نفس الفكرة التي سبق أن قالها بحيا ابن فاقودة في كتابه بعد صياغتها في صورة شعرية.

فإذا كان كل هؤلاء الباحثين الذين اجتهدوا في التأريخ لابن فاقودة قد حددوا عصره في النصف الأول من القرن الحادي عشر وهو عصر ملوك الطوائف -فإننا نجد على الجانب الآخر مجموعة أخرى من الباحثين تتعارض أقوالهم مع هؤلاء وتخالفهم الرأي إذ جعلوا ابن فاقودة يعيش في النصف الثاني من هذا القرن,ومن هؤلاء من قال: " ويعتقد بعض الباحثين أنه من المحتمل أن يكون قد عاش بعد سليمان بن جبيرول[١٨]. " ومن العبارة السابقة نستنتج أن الباحث يرجح أن ابن فاقودة قد عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ما بين ١٠٥٢ , و١٠٥٨ م وقد بلغ من العمر حوالي ثلاثين عاما[١٩].

وإلى جانب هؤلاء الباحثين نجد آخرين يعلنون صراحة عن عصر ابن فاقودة وموطنه في الأندلس الإسلامية حيث يذكر حاييم شيرمان أنه " عاش في سرقسطة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر [٢٠] " .

ومن خلال ما ذكره الباحثون الذين أرخوا للأدب العبري في الأندلس في العصر الوسيط , وما سطروه عن الفلسفة اليهودية بصفة خاصة وتطورها يمكن أن نعلم أن ابن فاقودة قد عاش بالفعل في الفترة التي أعقبت ابن جبيرول أي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وامتدت إلى العقود الأولى من القرن

الثاني عشر فقد ذكر إسرائيل تسنبرج في كتابه في معرض حديثه عن الفلسفة اليهودية قوله: " ولقد تطورت الفلسفة الدينية اليهودية بعد ذلك لا في موطن سعديا ولا في عصر الجاءونيم ورؤساء المنفى وإنما في الأندلس العربية. وكان أول المؤلفات الفلسفية الذي كتب هناك هو كتاب ينبوع الحياة – מקור חיים – لسليمان بن جبيرول... ثم عرف بعد ذلك كتاب " واجبات القلوب " للقاضي بحيا بن يوسف ابن فاقودة"[٢١] .

وإن كان هذا الرأي لا يؤكد تواجد ابن فاقودة بعد ابن جبيرول إذ من المحتمل أن يكون قد عاش معاصراً لابن جبيرول ولم يعرف كتابه لدى الطوائف اليهودية إلا بعد ظهور كتاب ينبوع الحياة إذ من المعروف عنه أنه لم يحظ بشهرة واسعة كما كان ابن جبيرول. ورغم تلك الآراء العديدة لم يتوقف الاهتمام بابن فاقودة وكتابه بعد ذلك كلّ يحاول قدر ما يتاح له من معلومات أن يحدد بصورةٍ أو بأخرى تاريخاً ثابتاً ومعلوماً يمكن من خلاله التعرف على تفاصيل حياة هذا الكاتب الذي أدهش بكتابه هذا العديد من المفكرين والباحثين من بعده. فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية فيما يتعلق بهذا الكتاب أن ابن فاقودة قد " كتب هذا الكتاب حوالي عام ١٠٨٠ م[٢٢] " وفي مقال نشر في صحيفة دافارَ " דבר " للكاتب تسفي كرينال " צבי קרניאל " بمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على كتاب الهداية إلى فرائض القلوب باللغة العربية في سرقسطة بالأندلس حوالي عام ١٠٨٠ م[٢٣] ". وإن كان الكاتب لم يوضح هل كانت لغة الكتاب العربية أم يعني العربية اليهودية أي التي اعتاد يهود العصر الوسيط الكتابة بها بأبجدية عبرية من عدمه.

وعلى أية حال فإنه مما سبق يتضح أن بحيا بن يوسف بن فاقودة قد حظي بقدر كبير من اهتمام الباحثين والمؤرخين لحركة الفكر اليهودي في الأندلس ربما لم يحظ بهذا القدر من الاهتمام في حياته , فكل يحاول أن يقف على تاريخ

مؤكد ومحدد يمكن أن تطمئن إليه النفس في تحديد بداية واضحة لحياته, غير أن الواقع الفعلي قد أظهر أنه لم يمكن تحديد ذلك على وجه اليقين وبيسر, وإن كنا نميل إلى أن ابن فاقودة قد عاش بالفعل بعد كل من الشاعر اليهودي المعروف سليمان بن جبيرول , وشيخ نحاة الأندلس مروان بن جناح القرطبي,وهذا يعني أنه عاش أواخر القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر,يدل على ذلك أن كلا من ابن جبيرول وابن جناح قد عاش كل منهما حتى العقد الخامس من القرن الحادي عشر وقد ذكر ابن فاقودة مروان بن جناح صراحة في مقدمة كتاب الهداية إلى فرائض القلوب في معرض حديثه عن العلماء والمفكرين الذين استعان بأقوالهم وأخذ من كتاباتهم حيث قال: " تصفحت كتب من تقدم من أوائلنا بعد أهل التلمود الذين صنفوا في أمور الشرائع تآليف كثيرة لأقف منها على العلم الباطن فألفيت جميع ما قصدوا بشرحه وبيانه لم يخل من أحد ثلاثة أغراض : أحدها شرح نصوص كتاب الله عز وجل وكتب الأنبياء عم[٢٤] , وذلك على أحد وجهين , أما شرح معاني لغتها ومجازاتها وتصاريفها وإنحاءها وضبط ألفاظها مثل كتب ابن جناح نضر الله وجهه بما فيه كفاية ..."[٢٥]

ومن هذه العبارة التي ذكرها في المقدمة نعلم أن مروان بن جناح كان متوفيا عندما كتب ابن فاقودة كتابه هذا,وأن كتب ابن جناح النحوية واللغوية كانت معروفة كلها عند ابن فاقودة,وكذلك سليمان بن جبيرول على الرغم من أنه لم يشر إليه في هذه المقدمة.

كما أنه ليس من الصواب ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن ابن فاقودة عند ذكره لمروان بن جناح لم يذكر العبارة التي كان يعتاد اليهود كتابتها في مؤلفاتهم وهي رحمه الله , أو طيب الله ثراه وكانوا يكتبونها اختصاراً وهي ז"ל.

خاصة وأنه قد ذكر أيضا سعديا جاءون الذي كان قد مات قبله بفترة طويلة دون أن يذكر هذه العبارة أيضا بل قال عنه عبارة مماثلة تقريبا للعبارة التي قالها عن ابن جناح وهي " رضي الله عنه ". وهي صيغة دعاء تتسلوى في مضمونها مع نفس العبارة التي ذكرها عن ابن جناح.

وواضح أن هدف هؤلاء الباحثين هو محاولة إثبات أن كتاب ابن فاقودة هذا قد كتب في عصر ابن جناح وقبل عام ١٠٥٠ م وهي السنة التي توفي فيها وهذا يعني أيضا أنه كتب في عصر سليمان بن جبيرول ولا نعتقد ذلك والأصوب أن يكون قد كتب أواخر القرن الحادي عشر ، و ربما امتد إلى أوائل القرن الثاني عشر وهو الأرجح.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

ثقافته:

فإذا كانت آراء الباحثين والمؤرخين للثقافة اليهودية في الأندلس لم تتمكن من الوقوف على رأي موحد تجاه الفترة التي عاشها ابن فاقودة خاصة تاريخ مولده أو وفاته فإن الأمر لا يختلف كثيراً إذا ما أردنا الوقوف على سيرته الذاتية وثقافته وفكره. وهي أمور لم يلق الباحثون عليها الكثير من الضوء, وكل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن إنما هو استنباط واستنتاج لأمور عديدة وذلك من ثنايا ما نطق به يحيا بن فاقودة أو سطره في كتابه الوحيد ,إذ أن الكتاب في الواقع خير مصدر يمكن أن نتعرف من خلال مضامينه وما يحتويه على حياة ابن فاقودة وفكره بل وحياته الشخصية والعامة في نفس الوقت.ولقد أشار إلى ذلك بعض الباحثين في الفكر اليهودي حيث قال " وقد اتضح من هذا الكتاب أنه كان وحيداً لا زوج له أو ولد ولم يكن له أقارب أو أصدقاء. وقد أكثر الحديث عن غربة الإنسان وعزلته ويتمه ,ولذلك فقد كان يعتقد أن على الإنسان الوحيد أن يحمد الله على وضعه هذا. "(٢٦)

ومن العبارة السابقة يبدو بوضوح أن غموض سنوات حياته وما حدث له فيها قد أضفى بالتالي غموضاً أكبر على مسيرة تلك الحياة نفسها ,والتي لم تأت أية تفاصيل عنها اللهم ما يذكره البعض من أن بحيا كان يشغل وظيفة " ديان דיין " أي قاض في مجتمعه اليهودي في مدينة سرقسطة ,ولم تخبرنا المصادر التي أرخت له أو كتبت عن كتابه بأية معلومات أكثر من ذلك . كما ليس بين أيدينا أية أخبار حتى عن المدة التي قضاها في هذا المنصب . ومن الثابت أن من يتولى مثل تلك المهمة لابد وأن يكون جديراً بثقة الطائفة من ناحية ,وعلى قدر كبير من سعة الثقافة والفكر الديني من ناحية أخرى. ومما لاشك فيه بناءاً على الشواهد المقتبسة من كتابه أنه كان بالفعل جديراً بأن يعتلي منصة القضاء والفصل في المنازعات والأمور الدينية بصفة خاصة.

وعلى الرغم من متطلبات هذه الوظيفة من ثقافة عامة وفكر واسع فإننا نجد أن مؤرخي حياته لم يذكروا شيئاً محدداً عن تعليمه وأساتذته الذين تلقى العلم على أيديهم ومصادر ثقافته المتنوعة التي أهلته لاعتلاء منصة القضاء في طائفته وغير ذلك من الأمور التي تلقي الضوء عليه وعلى سيرته الذاتية ولكننا نعتقد أن كتابه الهداية يمكن أن يشير بوضوح إلى عمق ثقافته وسعة اطلاعه على مناهل العلوم الدينية يهودية كانت أم عربية إسلامية. كما أن تلك الثقافة الواضحة في هذا الكتاب تخبر عن شخصية لم تهمل في الأخذ بأسباب الثقافة من منابعها الأصيلة والتي يمكن التعرف عليها دون عناء . ومن هنا نستطيع أن نرجع ثقافة وفكر ابن فاقودة إلى مصدرين أساسيين كان لهما دور فعال في مسيرته الفكرية وهما:

الأول : داخلي يتعلق به كيهودي حريص على معتقده اليهودي مما جعله يلم بأطراف الفكر اليهودي السائد في عصره وقبل عصره متمثلاً في تلك الشروح والتفسيرات والتعليقات التي ألفت حول نصوص التوراة والتلمود[٢٧] سواء كانت تلك الشروح والتفاسير لغوية أم كانت شروحاً تتعلق بمضامين الدين والشريعة اليهودية وتوضيح علاقة الإنسان بخالقه طبقاً لما نصت عليها القوانين والوصايا الدينية الموجودة في هذه الكتب. يضاف إلى ذلك ما سبق أن كتبه علماء اليهود السابقون عن الدين اليهودي وما يتصل به من قريب أو بعيد وبصفة خاصة كتابات الجاءونيم الذين أشار ابن فاقودة إلى البعض منهم في مقدمة كتاب الهداية[٢٨]. وقد استفاد كثيراً مما اطلع عليه من هذه المؤلفات ووضح ذلك في ثنايا الكتاب.

الثاني : خارجي وله في فكر وثقافة ابن فاقودة دور كبير لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه ,ونعني هنا بالمصدر الخارجي ثقافة عصر ابن فاقودة بصفة عامة ,وهي ثقافة عصر ملوك الطوائف وعصر المرابطين من بعدهم حيث تسيد الفكر العربي الإسلامي وازدهر في أنحاء الأندلس وعرفت القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر نهضة عربية شاملة في العديد من مجالات الفكر المتنوعة ,وسطع في سماء الأندلس جمع غفير من الشعراء والفقهاء والفلاسفة ففي مجال الأدب والشعر خاصة كان هناك ابن زيدون في قرطبة ,والمعتمد بن عباد في أشبيلية ,وأبو إسحاق الألبيري في غرناطة وله مواقف مشهورة تجاه اليهود وتسلطهم هناك وكثيراً ما حذر من ازدياد نفوذهم وفي المرية كان ابن حمديس وابن صمادح وعرفت الأندلس ابن حزم الأندلسي الظاهري وابن مسرة وغيره في مجال الفلسفة.

يضاف إلى ذلك كله ما وصل إلى الأندلس من ترجمات متنوعة لكتب الفلسفة اليونانية وكتب الرياضيات والفلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سماحة الإسلام وحكمة حكامه هناك قد أتاح لهذه البيئة أن تشهد العديد من المناظرات [٢٩] والمجادلات في فروع الفكر المختلفة والتي كانت تجري في أحيان كثيرة بين علماء المسلمين وبعض أحبار اليهود. ومما لاشك فيه أن مثل تلك اللقاءات كانت تتطلب استعداداً علمياً خاصاً يستوجب دراسة كل ما يتعلق بأمور الديانة الأخرى دراسة تؤهل صاحبها للوقوف وجهاً لوجه مع الجانب الآخر, خاصة وأن الأندلس قد وفد عليها الفكر المشرقي الإسلامي واليهودي , فوصلتها رسائل إخوان الصفا , وأقوال المتكلمين والمعتزلة ومؤلفاتهم , كما وصلت أيضاً مؤلفات اليهود المختلفة في مجال التفسير الديني وفي الفلسفة وغيرها.

فإذا كانت تلك هي البيئة الثقافية والفكرية للأندلس فإن ابن فاقودة شأنه في ذلك شأن سائر يهود هذه البلاد كان محاطاً بالعديد من ألوان الفكر والثقافة العربية الإسلامية ومنها نهل قدر استطاعته وتزود بما اتفق واتجاهاته فقد " استرعت انتباه ابن فاقودة بصورة خاصة كتب المتصوفين في الزهد ولقد كان لبحث ابن فاقودة في هذه الكتب أهمية كبرى على طريقه في الحياة , إذ بلور ماهية نفسه وطريقة تفكيره وفقاً لذلك ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ذا أسلوب عربي متين يمتاز بفراسة لغوية رقيقة , وفي الواقع فإن ابن فاقودة قد تبنى لنفسه كثيراً من آراء الزاهدين المسلمين. " (٣٠)

ولقد وضح ذلك جلياً في إنتاجه سواء كان ذلك في كتابه الهداية أو في تلك الأشعار القليلة التي أنشدها وبصفة خاصة في قصيدته " ברכי נפשי " والتي يضمنها الحديث عن السعادة الكبرى , وغنى النفس الذي يتحقق بالقرب من ذات الله . وهذه القصيدة ضمن كتاب الهداية في الباب العاشر منه وفي الفصل السادس منه عند حديثه عن نظام الصلاة بالليل , وقد ذكر أنه كتب أموراً عظيمة بها ابتهال إلى الله , ومناجاة للنفس وحثها على أن لا تبتعد عن الله.

في هذا الابتهال يحاول الشاعر أن يستحث النفس البشرية ويوقظها من نوم الغفلة والضياع وهو يعرف جيداً كيف يضع مصطلحاته التي تمس القلوب . ولم يتقيد ابن فاقودة في قصيدته بوزن معين من أوزان الشعر ولم يحدد لها قافية واحدة بل متغيرة باستمرار.

في هذه القصيدة يقول:

בָּרְכִי נַפְשִׁי אֶת יְיָ.
וְכָל קְרָבַי אֶת שֵׁם קָדְשׁוֹ

נַפְשִׁי.עַ֖ל תִּדְרְכִי
וְצִוֹּךְ בָּבְכִי
וְחִין לְפָנָיו עָרְכִי
וְשִׂיחָה לְנָגְדּוֹ שִׁפְכִי
וְהִתְעוֹבְרִי מִשְׁנָתֵכִי
וְהִתְבּוֹנְנִי מְקוֹמֵכִי
אַי-מִזֶּה בָּאת וְאָנָה תֵּלֵכִי
נַפְשִׁי.מִתְעוֹמְתֵךְ עוֹרְרִי
וְלִפְנֵי יוֹצְרֵךְ שִׁיר דַּבְּרִי
וְלִשְׁמוֹ זַמְּרִי
וְנַפְלָאוֹתָיו סַפְּרִי
וְגוּרִי מִמָּנּוּ בַּאֲשֶׁר תָּגוּרִי
נַפְשִׁי אַל תִּהְיִי כְּסוּס
כְּפֶרֶד אַיִן הָבִין
וּכְשִׁפּוּר נִרְתָּם
וְאֵישׁ נִדָּהֶם
כִּי מִמְּקוֹר בִּינָה קֹרַצְתְּ
וּמִמַּעְיַן חָכְמָה לַקַּחַת
וּמִמָּקוֹם קָדוֹשׁ הוּבֵאת
וּמֵעִיר גִּבּוֹרִים הוּצֵאת
מֵאֵת יְיָ מִן הַשָּׁמַיִם

al-maktabeh
www.
مكتبة
المهتدين

وفيما يلي ترجمة القصيدة:

يا نفسي باركي الله
وليبارك اسمه كل أحشائي
يا نفسي بالشجاعة تحلي
ولخالقك قدسي
والإحسان أمامه افعلي
وبالحديث إليه تودي
أفيقي يا نفسي من غفلتك
وتفهمي مكانتك
من أين جئت , وإلى أين مصيرك؟
يا نفسي من ثباتك استيقظي
وبالشعر أمام خالقك توسلي
ولاسمه غني وكبري
وعن معجزاته تحدثي
خافي الله يا نفسي حيثما تكونين
يا نفسي لا تكوني كالحصان جامحة
ولا تكون كالبغل بلا فهم
أو كمخمور ثمل
أو إنسان ضائع
لأنك من نبع الفهم قد خلقت
ومن مدينة الأبطال قد أخرجت
من عند الله , من السماء.

ولغة الشاعر في هذه القصيدة لغة اعتمد فيها بالدرجة الأولى على مخزونه من لغة العهد القديم ومصطلحاته العديدة التي تبدو واضحة في أبيات القصيدة والتي يمكن الوقوف عليها على النحو التالي:

أولاً: في البيت الخامس منها يقول: והזן לפניו ערכי وهذا البيت اقتبسه الشاعر من التعبير الموجود في سفر أيوب ٤١:٤ وهو يعني هنا أن تواصل النفس علاقتها وصلتها الدائمة بالله سبحانه وتعالى تناجيه وتتوسل إليه.

ثانياً : في البيت السادس يكرر الشاعر نفس المضمون الذي يحاول فيه أن يزجر النفس حتى يوقظها من غفلتها وينبهها بقوله أتدرين من أين أتيت وذلك بعد أن دعاها إلى أن تفيق من الغفلة التي تعيش فيها فبدأ بالإيقاظ ثم التوبيخ والتأنيب والترهيب فقال لها: " إلى أين مصيرك "

ثالثاً : قد يصل اقتباس الشاعر من العهد القديم إلى اللجوء إلى أخذ فقرة كاملة أو جزء منها وجعله بيتاً في قصيدته على نحو ما نجد في قوله:" אי מזה באת..فهذا البيت أخذه الشاعر من الفقرة الثانية من الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين.

رابعاً : ما تزال لغة العهد القديم وتعبيراته ومصطلحاته هي المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه الشاعر في هذه القصيدة ففي البيت الرابع عشر والذي يقول فيه: וגורי ממנו אשר תגורי.هذا البيت اقتبسه ابن فاقودة من سفر الملوك الثاني الإصحاح الثامن الفقرة الأولى وفيه يخاطب النفس بقوله أيتها النفس اشعري بالخوف

والرهبة في أي مكان تقيمين أو تتواجدين فيه لا لشيء إلا لأن الله معك حيثما كنت شاهد على أفعالك ومطلع عليها.

خامساً : يعود الشاعر مرات عديدة إلى مخاطبة النفس بهدف تحريكها وإيقاظها من تلك الغفلة التي تعيش فيها ويدفعها باستمرار إلى أن تتذكر نعم الله وأفضاله ومعجزاته فيقول: נפשי מתגומתך עורי..... إلخ

سادساً : باستمرار يتوجه الشاعر إلى النفس وكأنما يريد أن يؤكد أن حديثه وتوسلاته وابتهالاته هذه موجه إلى تلك النفس البشرية مع استخدام لغة العهد القديم ففي البيتين الخامس عشر والسادس عشر نجد هذا المعنى , كما نجد أيضاً اقتباس ابن فاقودة من المزمور رقم ٣٢ الفقرة التاسعة في قوله כפרד אין הכין وفي البيت التاسع عشر نجد لفظة קרצת وهي من الألفاظ التي وردت في الفقرة السادسة من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر أيوب.

سابعاً : إذا كانت افتتاحية القصيدة كما يذكر الباحثون قد اقتبسها ابن فاقودة من سفر المزامير ١٠٣ الفقرة الأولى منه فهذا يعني أن ابتهالاته وبداياتها تكون من البيت الثالث. وفي ختام أبيات القصيدة وفي بيتها الثاني والعشرين نجد استعانة ابن فاقودة بما جاء في سفر الأمثال في قوله: ומעיר גבורים أي ومن مدينة الأبطال وهي كناية عن السماوات والأرض , والتي تعني أن النفس الطاهرة مقرها السماوات دائماً فهي بواباتها ولا تخرج إلا منها , وبذلك يصدق ما يذكره الباحثون من أن ابن فاقودة كان يعتبر من بين فريق المتصوفين الأخلاقيين الذين يركزون دائماً

في مؤلفاتهم شعرية كانت لم نثرية على ضرورة الاهتمام والعناية بتربية النفس والحفاظ علي الأخلاق الحميدة إذ أن النفس هي العامل الأساسي في علاقة الإنسان بربه , وأن عمل الجوارح لا يتم إلا بعد أن تكون القلوب قد آمنت واستقر إيمانها.

تلك هي البيئة الفكرية التي عاش فيها ابن فاقودة , وتلك هي منابع الثقافة والعلم التي منها استقى , وعلى نسقها سطر كتابه, بيئة عربية خالصة , وثقافة إسلامية واسعة إلى جانب ثقافته وفكره الذي حصل عليه من المؤلفات اليهودية السابقة عليه , فجمع بذلك بين الثقافتين العربية الإسلامية , واليهودية جنباً إلى جانب.

هوامش المبحث الأول

١- ول ديورانت : قصة الحضارة. ص٢١٠ جـ١٣ .ترجمة: محمد بدران وآخرين.لجنة التأليف والترجمة والنشر.القاهرة.

٢- **يوسف بن تاشفين :** زعيم دولة المرابطين في المغرب ، وحركة المرابطين ظهرت في بداية أمرها كحركة دينية في بداية العقد الثالث من القرن الحادي عشر. تولى ابن تاشفين الحكم بعد أن تنازل له ابن عمه أبو بكر بن عمر عنه سنة ٤٥٣هـ. فقام عند ذلك بفتح مدينتي فارس وطنجة واشتهر هناك بقوته وحزمه الأمر الذي دعا ملوك الطوائف الأندلسية إلى الاستنجاد به لصد الجيوش المسيحية.

انظر في ذلك :

أ- بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث.بيروت ١٩٣٧.

ب- د. جودت الركابي : في الأدب الأندلسي.دار المعارف.القاهرة ص٢٣ – ص٣٣.

٣- **شموئيل هناجيد :**

ولد شموئيل بن يوسف هاليفي بن النغريلة في عام ٩٩٣م في مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية وقد عرف هذا الشاعر في التاريخ العربي باسم " أبو إسماعيل بن يوسف " وذلك كعادة يهود البلاد الإسلامية إذ كان لكل منهم اسم يعرف به في الأوساط العربية واسم آخر يعرفه به أبناء قومه وطائفته اليهودية. غادر قرطبة بعد أحداث ثورة البربر سنة ١٠١٣م واستقر في مالقة وافتتح هناك حانوتاً يتكسب منه إلى أن انتقل إلى غرناطة كاتباً في بلاط أميرها ثم وزيراً له وقائداً لجيشه. كتب ثلاثة دواوين من الشعر الأول يعتبر شعراً دنيوياً والثاني والثالث كتبهما في أواخر حياته ولذلك يغلب

عليهما طابع التدين والإحساس بفناء الدنيا وما فيها. مات حوالي ١٠٥٦م في غرناطة.

٤- مروان بن جناح :

كان عالماً ضليعاً في أمور اللغة العبرية ونحوها ، ويذكره المؤرخون دائماً على أنه شيخ نحاة الأندلس من اليهود. من أهم مؤلفاته كتاب التنقيح وهو يتكون من جزأين ، الأول أطلق عليه كتاب " اللمع " وهو يتضمن كل ما يتعلق بالنحو العبري ومشكلاته وما يدور حوله ، والثاني معجم باسم الأصول أو الجذور وهو معجم لألفاظ العهد القديم مقارنة بما يقابلها ويرجع فيها إلى أصول أو جذور تلك الألفاظ. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب ضمنه رسائله وأبحاثه التي رد بها على خصومه أثناء الخلاف الذي قام بينه وبين تلاميذ مناحم بن ساروق ويهودا حيوج وأطلق عليه اسم " كتب ورسائل لمروان بن جناح " وقد قام يوسف ديرنبورج بنشر هذا الكتاب.

٥- ابن حزم الأندلسي :

هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ولد بقرطبة عام ١٣٨٤هـ - ٩٩٤م . كان أبوه عالماً جليلاً ووزيراً للمنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر . عمل محمد بن حزم وزيراً للخليفة عبد الرحمن بن هشام . وإن كانت وزارته هذه لم تدم طويلاً نظراً لمقتل الخليفة والقبض على ابن حزم وإيداعه السجن . كان ابن حزم من المهتمين بعلوم الحديث والفقه . درس في أول مرة فقه المالكية ، بعدها درس المذهب الشافعي إلا أنه بعد ذلك اعتنق المذهب الظاهري وتعصب له. والمذهب الظاهري هو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، وبدأ ابن حزم في تنقيح هذا المذهب.

عرف عنه حبه للجدل والمناظرة , ومن أشهر مناظراته مناظرته لأبي الوليد سليمان الباجي الفقيه المالكي. وكذلك مناظرته الشهيرة للشاعر اليهودي شموئيل بن النغريلة ، وإن كان قد دار حول هذه المناقشة تحفظ . ويعتبر كتاب " الفصل في الملل والنحل " من أهم مؤلفات ابن حزم في علم مقارنة الأديان وله السبق على الغرب فيما يتعلق بهذا العلم.

انظر حول ذلك :

أ- وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١.

ب- جذوة المقتبس للحميدي ص ٢٩٠-١٩٣.

ج- د.إحسان عباس : الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. دار العروبة. القاهرة ١٩٦٠.

٦- دي لاسي أوليري : الفكر العربي ومركزه في التاريخ ص ١٩٨
ترجمه: إسماعيل البيطار. دار الكتاب اللبناني. بيروت.

٧- المصدر السابق ص ٢٠١.

٨- إنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٣٣٣. ترجمه دكتور: حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرسة ١٩٥٥.

٩- دي لاسي أوليري : نفس المصدر ص ٢٠٥.

١٠- ول ديورانت : قصة الحضارة جـ١٣ ص ١٣٨.

١١- سليمان بن جبيرول :

ولد سليمان بن جبيرول في بداية العقد الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي في مدينة مالقة بالأندلس الإسلامية وكان يعرف باسمه العربي " أبو أيوب سليمان بن يحيى " وإن كان هناك من

يعتقد أنه ولد بقرطبة. شهد منذ طفولته أحداثاً قاسية ومؤلمة ، فقد مات والده وهو في السادسة من عمره ، فأحس بألم الوحدة والحزن وعبر عن ذلك في أشعاره ، تنقل بين مدن الأندلس واستقر طويلاً في غرناطة تحت رعاية شموئيل هناجيد الذي مد لابن جبيرول يد العون غير أنه لم يحفظ له هذا الجميل فغضب عليه وخرج من غرناطة. كتب العديد من الأشعار الدينية والدنيوية في شتى الأغراض وعرف بميله إلى الفلسفة ، وكتب كثيراً من الشعر الفلسفي والتعليمي ، ومن أشهر أشعاره رسالة " تاج الملك " ومن مؤلفاته كتاب ينبوع الحياة ، ومختار اللآلئ ، ورسالة إصلاح النفس وهي كتب كتبها بالعربية اليهودية السائدة بين يهود ذلك العصر.

١٢- إنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٩٣.

١٣- كتب سليمان بن جبيرول هذه الرسالة باللغة العربية ، وليس بين أيدينا ما يثبت أنه كتبها بالعربية اليهودية التي كانت سائدة في عصره وقبل عصره لم أنها كتبت بأبجدية عربية منذ البداية إذ أن ما وصل إلى أيدينا نسخة مكتوبة باللغة العربية مع ترجمة إنجليزية لها منشورة عام ١٩٠٥ من مطبوعات جامعة كولمبيا
انظر الرسالة والترجمة في:

ST.WISE: the Improvement of Moral Qualities columbia university series N.Y.1905.

14- בחיי בן יוסף אבן פקודה : ספר חובות הלבבות. בתרגמו של ר. יהודה אבן תבון. מגה ומתקן לפי המקור הערבי.
עם מבוא והערות מאת : ד"ר א.צפרוני עמ' 8-9.

הוצאת מחברות לספרות בסיוע מסד
הרב קוק.

١٥- שם. עמ'. 8-7.

ومن هؤلاء الذي ذكرهم ناشر الكتاب القرائي دانيال بروز في كتابه المسمى " المرشد " حيث يذكر فيه أن كتاب الهداية إلى فرائض القلوب قد كتب عام ١٠٤٠م. وكذلك يذكر بنسكر في كتابه الذي نشر في عام ١٨٥١ ص ٧٣٨ أن هذا الكتاب كتب عام ١٠٤٠م. ومن الذين اتفقوا معهم في هذا الرأي وإن كان أعطى تاريخا متأخرا بعض الشيء عن التاريخ السابق للمؤرخ اليهودي جريتس في كتابه المعروف:
דברי ימי ישראל. חלק ٤. עמ' ٥٥. فهو يذكر أن كتاب ابن فاقودة كتب عام ١٠٥٠م.

١٦- .

L.Margolis,and Alexander Marx:
History of the Jewish people. P. 320. Atemple
Book Atheneum.1969.N.Y.

17- אהרון מירסקי: שירי הספרדים משער הבחינה של ספר חובות הלבבות לר. בחיי אבן פקודה. תרביץ.כרך. ב. עמ' 315. הוצאת ספרים ע"ש י"ל. תשמ"א 1980.

١٨-

Adel Bilderese: Jewish post Biblical
History through personalites.
P. 84. The union of American Hebrew
congregationy 1918.

١٩- فيما يتعلق بسنة وفاة سليمان بن جبيرول واختلاف المؤرخين حول تحديد السنة على وجه الدقة يمكن الرجوع إلى:

أ- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ١٣١. الطبعة الثانية. بيروت ١٩١٢

ب- المحاضرة والمذاكرة لموسى بن عزرا.

جـ- إنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٩٣. ترجمه د. حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥.

د- Waxman ,M.: The history of the Jewish literature N.Y.1930.P.219.

20- חיים שירמן: שירים חדשים מן הגניזה עמ' 203 . האקדימיה הלאומית הישראלית למדעים. ירושלים. תשכ"ו. עיין גם

א- חיים שירמן: השירה העברית בספרד ובפרובנס. חלק שני עמ' 343. מוסד ביאליק. תשי"ז.

21- דר. ישראל צינברג: תולדות ספרות ישראל . עמ' 105 כרך ראשון.הוצאת יוסף שרבק. בע"ם.

22- Encyclopedia Judaica

23- צבי קרניאל : חובות הלב.900 שנה ל " חובות הלבבות ". מאמר : עתון דבר יום שישי באייר תשמ"א. א במאי 1981.

٢٤- عم : اختصار اعتاده يهود العصور الوسطى في كتاباتهم باستمرار وهو يعني: عليه السلام. وهذا الاختصار من الواضح أن اليهود اقتبسوه من المسلمين في تلك الفترة.

٢٥- د. إبراهيم سالم بن بنيامين يهودا : كتاب الهداية إلى فرائض القلوب. تأليف الواعظ الديان يحى بن يوسف بن فاقودة. ص ٧ من المقدمة. طبع لأول مرة بالمطبعة البريليه في ليدن ١٩٠٧-١٩١٢.

26- שמחה בונם אורבאון (רב בסבעון):

דבנו בחיי. חובות הלבבות. מתוך:

ספר עמודי המחשבה הישראלית

ספר שני. חלק. א. תשמ"ד.

٢٧- كانت حركة التفسير الديني قبل عصر ابن فاقودة قد ازدهرت ازدهارا كبيرا بين الطوائف اليهودية المختلفة سواء الربانيون منهم أو القراءون. فإلى جانب مجهودات المدارس الشرقية في التفسير الديني في كل من بغداد وفلسطين ومذاهبها المختلفة التي انتهجت بصورة واضحة مذاهب التفسير الإسلامي وتأثرت بها فإن الأندلس الإسلامية عرفت أيضا العديد من اليهود من مفسري النصوص التوراتية والتلمودية أمثال إسحاق الفاسي ، وإسحاق بن غياث وغيرهما ، كما ظهر أيضا ما يعرف بكتب المختصرات والملخصات كمختصر التلمود لإسحاق الفاسي وغيره.

ولمزيد من التفصيل حول مدارس التفسير الديني اليهودي انظر:

د. عبد الرازق قنديل : الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي.

مدرسة الأندلس. دار التراث ١٩٨٤.

٢٨- مقدمة كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ص ٧ وما بعدها. ومما جاء في هذه المقدمة قول ابن فاقودة : " ولما كان علم فرائض الدين على ضربين أحدهما ظاهر والآخر باطن. تصفحت كتب من تقدم من أوائلنا بعد أهل التلمود الذين صنفوا في أمور الشرائع تآليف كثيرة لأقف منها على العلم الباطن فألفيت جميع ما قصدوا شرحه وبيانه لم يخل من أحد ثلاثة أغراض أحدها شرح نصوص كتاب الله عز وجل وكتب الأنبياء عم وذلك على أحد وجهين ، أما شرح لفظها ومعناها مثل شروح ר' סעדיה رضي الله عنه لأكثر الكتب العبرانية ، وأما

شرح معاني لغتها ومجازاتها وتصاريفها وأنحاءها وضبط ألفاظها مثل كتب ابن جناح نضّر الله وجهه بما فيه كفاية...الخ.

٢٩- ولعل أشهر تلك المناظرات التي تمت تلك التي كانت بين فقيه الأندلس ابن حزم الظاهري وبين شموئيل هناجيد المعروف باسم اسماعيل بن النغريلة. تلك المناظرة التي أشارت إليها المصادر العديدة التي أرخت للأندلس ورجالها ، ومنها ما ذكر أن ابن النغريلة هذا قد تطاول على الإسلام والمسلمين وإن كان الدكتور إحسان عباس قد ذكر تشككه في أن يكون ابن النغريلة قد فعل ذلك حيث قال:" ولكن نستبعد أن يكون اسماعيل هو مؤلف كتاب في تناقض القرآن لأن المصادر كلها تجمع على أنه كان بعيد النظر ، حسن المداراة لا يتورط فيما يوغر عليه الصدور وهذه صفات عري منها ابنه يوسف. وإليه يمكن أن ينصرف قول ابن بسام " وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام " وإليه أيضا يمكن أن ينصرف قول ابن سعيد:" وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها " ثم إن ابن حزم قد شهد لإسماعيل بالعلم والقوة على الجدل ".

ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

أ- د. إحسان عباس : الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى لابن حزم الأندلسي ص ١٦-١٧. دار العروبة. القاهرة ١٩٦٠.

ب- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: القسم الأول . المجلد الثاني ص ٧٦٦ تحقيق د. إحسان عباس.

جـ- ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب. الجزء الثاني. تحقيق د. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر.

٣٠- سليم شمشوع : العصر الذهبي. ص ١٦٩-١٧٠. الطبعة الثانية مطبعة
دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر. م. ض.
شفا عمرو ١٩٩٠.

المبحث الثاني

كتاب الهداية إلى فرائض القلوب

المحتوى . الهدف.

استطاع الفكر العربي الإسلامي بتراثه العظيم ، وتنوع أغراضه واتجاهاته ، وتناوله للعديد من الموضوعات والقضايا التي تمس زوايا كثيرة من زوايا الدين الإسلامي أن يكون له أثره المثمر والفعال في كثير من العقليات غير المسلمة التي تعايشت وسط المجتمع الإسلامي في العديد من الأمصار العربية شرقية كانت أو مغربية. ولعل العقلية اليهودية بصفة خاصة من أهم تلك العقليات التي استوعبت الكثير من مفردات الفكر العربي الإسلامي طبقا لما أجمع عليه كثير من الباحثين اليهود الذين تناولوا حقبة العصر الوسيط بالبحث والدراسة. ولقد وضح هذا بشكل ملحوظ لدى أولئك اليهود الذين يميلون بحكم نشأتهم العربية ومواقفهم في المدارس اليهودية ؛ واشتغالهم بأمور الدين والشريعة- إلى الخوض في مثل تلك الأمور الدينية ، وبصفة خاصة ما يمس منها أو يتصل بالعقيدة على وجه التحديد.

ويعتبر سعديا سعيد بن يوسف الفيومي[1] في بغداد من أبرز هؤلاء اليهود الذين وضح اهتمامهم واشتغالهم بكل ما يتعلق بالفكر اليهودي عامة ، وما يخص العقيدة اليهودية على وجه الخصوص وذلك في القرن العاشر الميلادي ، الأمر الذي نتج عنه كتابه الشهير " الأمانات والاعتقادات " والذي وضح فيه تأثره بفكر ومذاهب المتكلمين المسلمين وآراء المعتزلة وغيرهم ، وهو بهذا الكتاب فتح مجالا بكرا لمن جاءوا بعده من علماء اليهود للبحث والدراسة الواسعة والمتعمقة لكل ما يمس من قريب أو بعيد تلك العقيدة الدينية ، وما يدور حول علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى ، وطوروا فيها متوسمين خطى من سبقهم أو عاصرهم من مفكري المسلمين وعلمائهم الذين كثرت

مؤلفاتهم وانتشرت أفكارهم في هذا المجال ، ونتج عن هذا أن وجدت " هناك كتابات هدفها التوفيق بين الوحي والعقل ، وهي تمثل جانباً من محاولات تفسير العهد القديم ، وكان من الذين حاولوا شرح فقرات الكتاب شرحاً فلسفياً وأخلاقياً بحيا بن يوسف بن فاقودة.[٢] "

فإذا كان ذلك هو وضع علماء اليهود ومفكريهم في المشرق العربي بصفة عامة فإن الوضع في المغرب الإسلامي وخاصة في الأندلس لم يختلف كثيراً عما كان عليه الحال في المشرق فالبيئة الفكرية تكاد أن تكون هي نفس البيئة ، والدوافع التي دفعت يهودياً مثل سعديا إلى البحث والدراسة في المعتقدات اليهودية ومحاولته التوفيق بين معطيات العقل والنقل على حد سواء هي نفس الدوافع تقريباً الذي دفعت بحيا بن فاقودة إلى الخوض في هذا المجال والتركيز على الصور الدينية والأخلاقية وعلاقة الإنسان بربه وواجباته في ذلك. ومن هذا المنطلق كتب ابن فاقودة كتابه الوحيد في هذا المجال ، ووضع له عنواناً يفصح فيه عن هدفه وتوجهاته في هذا الكتاب الذي أسماه " الهداية إلى فرائض القلوب ".

كتب بحيا بن فاقودة كتابه هذا باللغة العربية التي كان يجيدها يهود العصر الوسيط الذين يعيشون وسط المجتمعات الإسلامية سواء في الشرق أو في الأندلس. وطبقاً لما درج عليه يهود تلك المجتمعات في أسلوب كتابتهم كتب ابن فاقودة كتابه بالعربية بأبجدية عبرية ، وهذه اللغة بهذه الصورة التي كانت متبعة وسائدة بين اليهود هي ما يطلق عليها الباحثون اليهود المحدثون " العربية اليهودية[٣] ".

وطبقاً لما ذكرته معظم المصادر التي تعرضت بالحديث لهذا الكتاب ومؤلفه إيجازاً أو تفصيلاً فقد كتب ابن فاقودة كتابه حوالي عام ١٠٨٠ م وهذا يعني أنه كتبه قرب نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، ومن الجدير بالذكر أنه

على الرغم من أن لغة الكتاب هي اللغة العربية فإن المؤلف في مقدمته له يدعي أنه يجهل اللغة العربية وبصفة خاصة الفصحى منها وفي ذلك يقول:" فلما هممت بإنفاذ عزمي ورأيي على تأليفه لم ار مثلي لتعاطي تأليف مثله أهلا ، وشعرت من نفسي بالتقصير عن التصنيف وتوفيته حقه لتخلفي ونقصان علمي ونبو فهمي عن الإحاطة بالمعاني ، وجهلي بفصيح لغة العرب ونحوها التي بها عبرت عنه لسهولة فهم أهل عصرنا لها[4]. " ولا شك أن تلك السطور توضح إلى أي مدى يتناقض ابن فاقودة مع واقعه الفعلي فيما يتعلق بمدى إلمامه ومعرفته باللغة العربية التي دون بها كتابه.

ويبدو أن منهج ابن فاقودة عندما فكر وعزم على أن يكتب هذا الكتاب بهذا المنهج ويضمنه هذا الكم من المعلومات كان يدرك إدراكا جيدا أن موضوعه هذا لم يسبقه إليه أحد من اليهود على الرغم من كثرة ما وضعه علماؤهم في مجال الديانة اليهودية من مؤلفات سابقة عليه ، سواء كانت شروحا وتفسيرات للنصوص الدينية أو تنظيما للقوانين الشرعية والتشريعية التي تنظم حياة اليهودي. لقد لاحظ المؤلف أن مفكري اليهود الذين سبقوه كانوا يهتمون في كتاباتهم باستمرار على الأوامر والنواهي التي تتعلق بالدرجة الأولى بواجبات ظاهرية مفروضة يقوم بها الإنسان اليهودي بواسطة استخدامه لأعضاء جسده الظاهرة.

وبحث ابن فاقودة في المؤلفات الدينية اليهودية التي سبقه إليها علماء اليهود ، وأعمل فيها فكره وعقله ودون ملاحظاته عنها وعن الأهداف التي كان يريد كاتبوها أن يصلوا إليها ، وأعلن عن ذلك كله في مقدمته حيث قال :" ولما كان علم فرائض الدين على ضربين أحدهما ظاهر ، والآخر باطن ، تصفحت كتب من تقدم من أوائلنا بعد أهل التلمود [5] الذين صنفوا في أمور الشرائع تأليف كثيرة ، لأقف منها على العلم الباطن ، فألفيت جميع ما قصدوا شرحه

وبيانه لم يخل من أحد ثلاثة أغراض: أحدها شرح نصوص كتاب الله عز وجل وكتب الأنبياء عم[٦] وذلك على أحد وجهين : إما شرح لفظها ومعناها مثل شروح رابي سعديه رضي الله عنه لأكثر الكتب العبرانية وأما شرح معاني لغتها ومجازاتها وتصاريفها ، وإنحائها وضبط ألفاظها مثل كتب ابن جناح نضر الله وجهه..." [٧]

ويواصل المؤلف بعد ذلك حديثه عن الكتب والمؤلفين الذين أولوا المسائل الدينية اهتماما وبحثا وشرحا إلا أنه قد استقر في نفسه أن هذه المؤلفات كلها تبحث في العلم الظاهر فقط. أما الباطن فرغم تنبه المفكرين إليه فإن أحدا لم يتعرض له بالبحث أو يتناوله بالدراسة. من هنا فإن الحديث عن الباطن في فكر ابن فاقودة يتمثل في الحديث عن القلب وما يقع عليه من فرائض . لقد كان ذلك كله هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله أبواب الكتاب العشرة كما وضعها المؤلف وصنفها ، بل إنه قد أعلن صراحة عن منهجه في هذا الكتاب وذلك في مقدمته الطويلة له حيث قال:" بحثت فلم أجد فيها كتابا مخصوصا بالعلم الباطن فرأيت هذا العلم أعني علم فرائض القلوب مهملا غير مضبوط في كتاب يحوي أصوله ، وسدى غير مذموم في تأليف يحيط بفصوله ، فطال عجبي في ذلك ، وقلت في نفسي لعل هذا الصنف من الشرائع غير لازم لنا لزوم فرض ، بل وجوبه من جهة الأدب والحض على السبيل الأنهج والطريق الأرشد ، وحسبه النوافل[٨] التي لا نطالب بتضييعها ، ولا نعاقب على إغفالها ، ولذلك أهمل الأوائل تقييده فبحثت عن فرائض القلوب من المعقول والمكتوب والمنقول. " [٩]

ومن الأسطر السابقة يوضح ابن فاقودة أنه قد درس كتب السابقين وما فيها فلم يجد فيها ما يصبو إليه من معرفة ما عليه العلاقة الباطنية بين الإنسان وخالقه ويعني بذلك كيفية علاقة قلوب البشر بذات الله سبحانه وتعالى ، وهل من واجبات وفروض على هذه القلوب يجب توافرها في قلب المؤمن من عدمه.

ومن هذا المنطلق أخذ ابن قاقودة يعلن عن اتجاهه ومنهجه الذي استقر على الكتابة فيه وهو أن يغوص في توضيح علاقة القلب بالإنسان ، وهل يصح أن يكتفي الإنسان بأداء الأوامر والنواهي والمباح والمحظور من الفرائض الشرعية التي يحددها الدين أو التي يوضحها له علماء الدين وذلك عن طريق الجوارح الظاهرة فقط دون أن يكون لباطنه نفس الواجبات والفرائض أو تزيد عليها؟..ودام البحث والدراسة بفكر العالم المطلع على فكر وثقافة عصره خاصة الفكر العربي الإسلامي ، وفي نهاية الأمر اهتدى إلى أن الإنسان بصفة عامة مكون من نفس وجسد ، وكلاهما كما يقول ابن قاقودة نعمة أسبغها الله عليه.

وتلك النعمتين –أي النفس والجسد-إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة ويعلن عن اقتناعه بما وصل إليه قائلا:" قد صح لنا أن الإنسان مؤلف من نفس وجسد ، وكلاهما نعم الله قبلنا أحدهما ظاهر والآخر باطن ، فيلزمنا لله تعالى عنهما طاعة ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة فرائض الجوارح كالصلاة ، والصوم ، والصدقة..مما يتم عمله بحواس الإنسان الظاهرة ، وأما الطاعة الباطنة فهي فرائض القلوب (١٠) ".

وعلى هذا فإن الإنسان ليس مطالبا فقط بتنفيذ الأعمال الدينية بجوارحه الظاهرة ، وإنما لابد له من طاعة الله باطنيا عن طريق القلب ، وما يلقي عليه من أعباء وواجبات أخذ المؤلف في تعدادها ويبداها أولا بضرورة إيمان القلب إيمانا راسخا بوحدانية الله عز وجل ، والإيمان بوحدانيته يستوجب أيضا الإيمان بالكتاب الذي أنزله. وهذا الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع لا يكون إلا عن طريق القلب. وقد أدت تلك الفكرة التي توصل إليها ابن قاقودة إلى نتيجة حاسمة في اعتقاده فحواها أنه من الضروري أن تكون هناك فرائض ظاهرة تقوم بها جوارح الإنسان ، وفرائض باطنة غير معلنة تقوم بها القلوب ، فإذا ما تحقق ذلك فهنا يكتمل إيمان الإنسان. ويكتمل حسن طاعته لخالقه سبحانه وتعالى.

وحتى لا تغمض الأمور على القارئ ، ويعتقد أن هناك فاصلاً بين فرائض الجوارح الظاهرة وفرائض القلوب الباطنة نجد ابن فاقودة يوضح تلك الأمور معلناً أن فرائض الجوارح مرتبطة ارتباطاً وثيقاً لا ينفصل بالقلوب وفرائضها ، وذلك أنه لا تتم أو تكتمل فرائض الجوارح إلا برضاء القلوب وفي هذا يقول:" فعلمت علماً يقيناً أن فرائض الجوارح لا تتم لنا إلا باختيار قلوبنا لعملها ، وقلق نفوسنا لفعلها. فإن توهمنا أن قلوبنا غير مفروض عليها الاختيار لطاعة الله سقط عن جوارحنا لوازم فرائضها إذ لا يتم لها عمل دون اختيار نفوسنا لذلك ، فلما صح تكليف الخالق تعالى جوارحنا القيام بفرائضه لم يجز أن يهمل قلوبنا ونفوسنا التي هي أشرف أجزائنا دون تكلفنا ما في طاقتها من التعبد له إذ بها تمام الطاعة وكمال العبادة فوجب لذلك تكليفنا فرائض ظاهرة وفرائض باطنة لتكون الطاعة تامة كاملة شاملة لظاهرنا وباطننا لخالقنا جل وعز[١١] ".

ونظراً لأن ما سبق أن اطلع عليه من مؤلفات دينية وجدها ابن فاقودة لم تتعرض أو تذكر شيئاً عن تلك الفرائض الباطنية والتي وجد أنها من واجبات القلوب حتى يكتمل إيمان الإنسان ، فقد تبادر إلى خاطره بداية أن عدم تعرض المؤلفين السابقين في مؤلفاتهم لما يتعلق بهذه الفرائض الواجبة ربما يرجع إلى أن التوراة وهو الكتاب الذي يحتوي على كل ما ينظم حياة الفرد اليهودي دينياً- قد خلت من ذكر هذه الواجبات أو التنبيه إليها كما فعلت مع العديد من الواجبات الظاهرة. غير أنه بعد تدقيق ودراسة لنصوص هذا الكتاب عاد مرة أخرى وأقر بأن ذلك ليس صحيحاً ، وأن هذه التوراة قد نصت في العديد من نصوصها على مثل تلك الفرائض ، وأن عدم ذكر المؤلفين السابقين لهذه النصوص يرجع إلى أنهم هم الذين أهملوا ذكر هذه النصوص أو الإشارة إلى مواضعها في التوراة ولذلك فقد قام بذكر بعض هذه النصوص التي تحث على هذه الفرائض [١٢].

ونتيجة لما أمكنه التوصل إليه ، واستقر في وجدانه فقد أخذ في شرح وتوضيح ما يحتويه كتابه الهداية ، مقسما إياه إلى عشرة أبواب أعلن عنها في تلك المقدمة بقوله: " فلما تم رأيي وعزمي على تصنيفه لخصت أسسه ، ومهدت قواعده ، وبنيته على عشرة أصول جامعة لجملة فرائض القلوب ، وقسمته على عشرة أبواب يختص كل باب منها بأصل واحد من أصوله ويتضمن حدوده وأقسامه ، وتوابعه ، ووجوه مفسداته. وأسلك فيه طريق التنبيه والهداية والإرشاد باللفظ البين القريب المستعمل ليسهل فهم المعنى المقصود شرحه ، واجتنب فيه الكلام المستغلق ، واللفظ الغريب والبراهين الجدلية ، والمطالب البعيدة التي لا يسهل حلها والجواب عنها في مثل هذا الكتاب."[١٣]

ومما لا شك فيه أن تلك الأصول العشرة التي أشار إليها المؤلف كان لكل أصل منها أهمية معينة في نظره تختلف بالطبع من أصل إلى آخر ، ولذلك فإن تلك الأبواب العشرة التي وضعها طبقا لتلك الأصول رتبها ابن فاقودة حسب أهميتها عنده ، وذكر الأسباب التي دعته إلى الالتزام بهذا الترتيب في الكتاب مشيرا إلى أهمية كل باب من تلك الأبواب ، تلك الأهمية التي تدور في مجملها حول ضرورة الإيمان بذات الله سبحانه وتعالى إيمانا نابعا في أساسه من القلب. وهذا فرض يلزم القيام به ، ولا يجب الحيدة عنه مهما كانت الأسباب وذلك لكي يكتمل إيمان البشر اكتمالا تاما.ويصرح برأيه في ذلك بقوله:" فلما عزمت على إثبات أصول فرائض القلوب في كتابي هذا استعملت قياسي في اختبارها لتكون جامعة لغيرها ، وحاوية لسائرها فوضعت أصلها الأعلى ، واسمها الأكبر إخلاص التوحيد لله. ثم نظرت إلى ما يلزمنا من اتباع التوحيد به من الفرائض المذكورة المشاكلة له منا ، فعلمت علما يقينا أن الخالق تع[١٤] لما كان واحدا ، ولا يلحقه اسم جوهر ولا عرض ، ولم يتجاوز فكرنا إلى إدراك ما ليس بجوهر ولا عرض امتنع علينا إدراكه من جهة ذاته فلزم تعريفنا به ، وإدراكنا لوجوده

من جهة مخلوقاته ، وهو باب الاعتبار بالمخلوقين.فوضعت الاعتبار أصلاً ثانيا لجملة من فرائض القلوب."[١٥]

ويستمر ابن قانودة في توضيح منهجه الذي اتبعه في مؤلفه ، وبيان ماهية تلك الأصول التي تخيرها فيقول:" ثم تأملت إلى ما يلزم للواحد الحق من الربوبية وما يحق على المخلوقين من عبودية.فوضعت التزام الطاعة لله أصلاً ثالثا لجملة من فرائض القلوب ، ثم تبينت إلى ما يلزم الواحد الحق من انفراده بتدبير الكل وأن النفع والضر ليس في يد غيره ، ولا في مقدور سواه إلا عن إذنه ، لزمنا التوكل عليه والاستسلام إليه ، فوضعت التوكل أصلاً رابعا لجملة من فرائض القلوب.ثم تفكرت في معنى الواحد الحق من اختصاصه بذاته ولا يشارك شيئاً ، ولا يشبه شيئاً ، أتبعت ذلك إفراده بالطاعة والعبادة بإخلاص عملنا لوجهه أن لا يقبل العمل المشترك فيه غيره معه ، فوضعت إخلاص العمل لله أصلاً خامسا لجملة من فرائض القلوب.ثم أجلت فكري فيما يلزمنا للواحد الحق من التعظيم والإجلال إذ ليس كمثله شئ.فتبع ذلك التواضع له كحسب ما يستأهله فوضعت التواضع أصلاً سادسا لجملة من فرائض القلوب. ثم تصفحت ما يجري على الناس من الغفلة والتقصير فيما يلزمهم من طاعة الله جل وعز ، وكان وجه استدراك غلطهم وتقصيرهم التوبة والاستغفار. فوضعت التوبة أصلاً سابعا لجملة من فرائض القلوب.

ثم لما تفحصت عن إدراك حقيقة لوازمنا لله عز وجل من الفرائض الظاهرة والباطنة ، وعلمت أنها لاتصبح منا إلا بمحاسبة أنفسنا عن ذلك لله والتقصي عليها ، وضعت المحاسبة للنفس أصلاً ثامنا لجملة من فرائض القلوب. ثم رددت خاطري في معنى الواحد الحق فرأيت أن توحيده بإخلاص لا يصح في نفس المؤمن إذا سكر قلبه من شراب حب الدنيا واسترساله إلى شهواته البهيمية فإذا رام تقريع ضميره ، وإخلاء باله من فضول الدنيا بالزهد

في لذاتها تمكن التوحيد التام من قلبه ، وخلصت له فضلته ، فوضعت الزهد في الدنيا أصلاً تاسعاً لجملة من فرائض القلوب. ثم بحثت عما يلزمنا للخالق تع الذي هو غاية كل أمل ، ونهاية كل رجاء ، إذ منه الابتداء ، وإليه الانتهاء ، وما يستوجبه منا من المحبة في رضاه ، والخوف من سخطه الذين هما غايتا السعادة والشقاوة ، فوضعت المحبة في الله تعالى عز وجل أصلاً عاشراً لجملة من فرائض القلوب." (١٦)

ومن هذا التفهم الواعي لتلك الأصول العشرة نجد أن ابن فاقودة قد كشف بوضوح عن مضمون كتابه ، كما بين باختصار لماذا جعل تقسيم هذا الكتاب على تلك الصورة متدرجاً من التوحيد لله ، والإيمان به وبوحدانيته التي لا يشاركه فيها أحد غيره ، ومنتهيا بفريضة المحبة الخالصة لذات الله عز وجل. هذا التوضيح يدفعنا بلا شك إلى القول بأن ابن فاقودة بعد اطلاعات واسعة ، ودراسات متأنية ، بناها على ثقافة دينية وفلسفية وأخلاقية رحبة سواء من بيئته الخاصة ونعني بها بيئة الفكر اليهودي المعاصر أو السابق له ، أو من البيئة العامة التي عاش وسطها ونهل من ينابيع فكرها ونعني بها البيئة العربية الإسلامية بفكرها الواسع والمتجدد باستمرار. نقول أنه أراد أن يقدم لأبناء طائفته شريعة باطنية شاملة وهي شريعة الواجبات والفرائض التي يجب أن تلتزم بها قلوب كل من يرغب في القرب من الله لينال ثوابه ، ولذلك قال عنه الباحثون إنه" قد تأمل في كتب الحكماء التي قبله ، ولم يجد لديهم شريعة فرائض القلوب...وجاء ليملأ هذا الفرع ، فواجبات القلوب هي النية التي في القلب ، الإدراك والإنجاز السليم ، وهي الجوهر وبغيرها لا قيمة لفرائض الجوارح."(١٧) وإن كنا نعتقد أن ما أشار إليه الدكتور سفروني من خلو كتب العلماء والحكماء الذين سبقوا ابن فاقودة من شريعة فرائض وواجبات القلوب ربما يمكن تطبيقه على مؤلفات اليهود حتى عصر المؤلف باستثناء ما كتبه سعديا الفيومي في كتابه الأمانات والاعتقادات وكذلك سليمان بن جبيرول في

رسالته المعروفة بإصلاح الأخلاق" תקון מדות הנפש ".

فإذا انتقلنا إلى الجانب الفكري الأخر السابق والمعاصر لابن فاقودة ونعني به جانب الفكر العربي الإسلامي ، فإننا نستطيع- من خلال ما ذكره المؤلف بنفسه في كتابه-أن نؤكد أنه قد قرأ العديد من مؤلفات العرب المسلمين وتأثر كثيراً بما تضمنته ونقل منها ولنا عود إلى هذه المسألة تفصيلاً.

وعلى أية حال فإن الباحث في مضامين كتاب الهداية إلى فرائض القلوب يمكن أن يعتبره من المؤلفات الفكرية اليهودية التي تهدف إلى إرشاد الحائرين من طائفة اليهود الذين لم يتفقهوا كثيراً في الشريعة اليهودية ولم يتفهموا جيداً ما تفرضه عليهم من واجبات ، وكذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب هادياً لأولئك الذين يحيدون عن الطريق السوي ، وهو في نفس الوقت بمثابة ناقوس يوقظ ويعظ من يغفلون أو ينحرفون عن الجادة والصواب.هذا في الوقت الذي يعتبره بعض المحدثين أنه من المؤلفات التي تدور في فلك الفكر الفلسفي الديني فقد ذكر " يوسف دان " قوله: " وكتاب חובות הלבבות كتاب الهداية إلى فرائض القلوب هو أحد الكتب الفلسفية الدينية التي تشتمل على الوصايا والواجبات المتعلقة بالقلب ، ولا تتعلق بسائر أعضاء الجسد ، ومن تلك الوصايا التوحيد لله ، حساب النفس ، محبة الله والإخلاص له وما إلى ذلك ".[١٨]

ومن خلال تلك المقدمة التي قدم بها ابن فاقودة لكتاب الهداية إلى فرائض القلوب ومن خلال المنهج الفكري الذي أعلن عنه في تلك المقدمة والتي يبدو فيها أنه قد سار على نهج وأسلوب المؤلفين المسلمين على ما سيأتي ذكره فقد قسم المؤلف هذا الكتاب إلى عشرة أبواب رتبها وأعدها على النحو التالي:

الباب الأول : في شرح وجوه إخلاص التوحيد لله عز وجل.

الباب الثاني: في شرح وجوه الاعتبار بالمخلوقين وفضل نعمة الله عليهم.

الباب الثالث: في شرح وجوه التزام طاعة الله علينا.

الباب الرابع: في شرح وجوه وجوب التوكل على الله جل وعز.
الباب الخامس: في شرح وجوه وجوب إخلاص عملنا لوجه الله والتحفظ من الرياء.
الباب السادس: في شرح وجوه وجوب التواضع والخشوع لله علينا.
الباب السابع: في شرح وجوه وجوب التوبة وحدودها وتوابعها.
الباب الثامن: في شرح وجوه وجوب محاسبة الإنسان نفسه لله.
الباب التاسع: في شرح وجوه وجوب الزهد وما يصلح منه.
الباب العاشر: في شرح وجوه وجوب المحبة في الله عز وجل ودرجاتها.

ومن النظرة الدقيقة إلى هذا التقسيم لأبواب الكتاب يتضح بما لا يدع مجالاً للشك الهدف الذي يهدف إليه ابن فاقودة ، فهذا التقسيم في مجمله وأسسه يدور حول نقطة محورية رئيسية هي فكرة" الذات الإلهية "وهذه النقطة كما يقول عنها بعض الباحثين في المعتقدات اليهودية أنها " هي المحور الذي يربط بين فقرات الكتاب ، وتدور حول ذات الله كل تأملات وفكر الرابي بحيا فإننا نجده قد ركز كل تفكيره في الله ، وكأنما قد خصص كل أهدافه من هذا الكتاب لتوجيه نفس القارئ إلى الله لمعرفته معرفة يقينية ".[١٩] إذ أن معرفة ذات الله سبحانه وتعالى معرفة حقة ، نابعة من أعماق القلب هي نقطة الانطلاق الأولى إلى الإيمان به ، والإخلاص له ، والتواضع والخشوع لذاته العلية ، وذلك كله يزيد باستمرار من المحبة له والزهد فيما عداه.

إذا فهذه المعرفة الحقة هي بلا جدال الشرارة التي تلهب النفس وتحرك الروح وتوجه النفس وجهتها السليمة ولقد نجح ابن فاقودة في الباب الأول من هذا الكتاب في أن يوجه الإنسان إلى كيفية الإيمان بقلبه وروحه ونفسه بوجود الله ، ووحدانيته التي لا ينكرها مؤمن على الإطلاق فهو الواحد الأحد الأزلي ، كما أنه أرشد الإنسان إلى كيفية تقدير عظمة الخالق سبحانه جلت قدرته وكان

سبيل ابن فاقودة إلى ذلك كله هو تقديم الأدلة والبراهين المقنعة سواء كانت أدلة عقلية يهدف إليها بفطرته وتفكيره أو أدلة نقلية وإذا كان الباحثون اليهود والمحدثون منهم بصفة خاصة يعتبرون بحيا بن فاقودة من المفكرين الذين اجتهدوا كثيرا في تجديد الفكر الديني اليهودي من خلال ما سطره في هذا الكتاب ، فإنه في نفس الوقت ومن وجهة نظر أخرى لم يكن سوى مفكر ناقل ومتأثر بثقافة وفكر غيره وإن لم يصرح بذلك في سطوره.

لقد كانت نقطة الانطلاق اليهودية التي بدأ بها ابن فاقودة حديثه عن وحدانية الله تعالى في هذا الكتاب هي فقرتي الخروج ٢٠:٢-٣ والتي تركز على أن لا يتخذ الإنسان آلهة أخرى مع الله حيث جاء فيهما:" אָנֹכִי יהוה אֱלֹהֶיךָ אֲשֶׁר הוֹצֵאתִיךָ מֵאֶרֶץ מִצְרַיִם מִבֵּית עֲבָדִים: לֹא יִהְיֶה לְךָ אֱלֹהִים אֲחֵרִים עַל-פָּנָי "(٢٠)

وكذلك فقرات التثنية 6:4-6 وما بعدها والتي يطلق عليها الفكر الديني اليهودي فقرة السماع ، ويرددها اليهود باستمرار في صلواتهم وهي :" שְׁמַע יִשְׂרָאֵל יְהוָה אֱלֹהֵינוּ יְהוָה אֶחָד: וְאָהַבְתָּ אֵת יְהוָה אֱלֹהֶיךָ בְּכָל-לְבָבְךָ וּבְכָל נַפְשְׁךָ וּבְכָל – מְאֹדֶךָ : וְהָיוּ הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה אֲשֶׁר אָנֹכִי מְצַוְּךָ הַיּוֹם עַל לְבָבֶךָ " (21)

فهذه الفقرة تؤكد أن وحدانية الله هي نقطة البداية عند ابن فاقودة ، ولذلك جعل فصل الوحدانية هو الفصل الأول من كتابه ، وفيه فصل الحديث عن هذه الفقرة وشرح أن الشماع هنا لا يقصد به مجرد الاستماع بالأذن فقط ، وإنما أراد به الاعتقاد والالتزام والقبول وفي ذلك يقول:" وليس يريد بقوله في שמע ישראל اسمع ، وإنما أراد الاعتقاد والالتزام."(٢٢) وبنفس هذا الأسلوب يستمر ابن فاقودة في بقية أبواب كتابه ، يتحدث عن فرائض القلوب مستدلاً ومستشهداً

بفقرات من العهد القديم أحيانا ، ومن نصوص التلمود في أحيان أخرى ، وقد لا يكتفي بذلك بل يأخذ أيضا من أقوال الفلاسفة والحكماء السابقين منهم من يذكرهم صراحة بأسمائهم ، ومنهم يغفل أسمائهم ويكتفي بعبارة:وقال أحد الحكماء "ونحو ذلك.

وقد يلجأ في مواضع قليلة إلى الاستشهاد بمثل سابق أو قصة من القصص إذا استدعى الأمر إليها وخاصة قصص العهد القديم التي يبدو أنه لم يكن يقف منها موقفا إيجابيا ويطيل عنها الحديث ، وإنما كان يقتبس منها ما يستدل به على الأمور الباطنية فقط.ولعل ذلك ما حدى بأحد الباحثين في القصة العبرية في العصور الوسطى إلى أن يقول عنه إنه:" يتضح أن علاقة الرابي بحيا من الممكن أن تكون إيجابية بالنسبة للقصص التي تعين على الانشغال بالأمور الروحانية والأخلاقية ، والدليل على ذلك كلامه تجاه القصة المقرانية ، وهو إن دل على شئ فإنما يدل على أنه هاجم القصة ذات نفسها إذا لم تكن تخدم هدفا دينيا وأخلاقيا إيجابيا."(٢٣)

لقد أكثر ابن فاقودة في كتابه هذا من الاستدلال بفقرات عديدة من أسفار العهد القديم وبصفة خاصة من نصوص التوراة وكأنما أراد أن يثبت لليهود ولغيرهم أن هذه التوراة إلى جانب ما تتضمنه من نصوص تشريعية تنظم العديد من القوانين المدنية والجنائية لليهود وتحددها بحيث تجعلها ضوابط للحياة الدنيا ، فإلى جانب كل تلك القوانين فإن التوراة أيضا تتضمن في نفس الوقت قوانين روحية بها كثير من النزعات الصوفية والأخلاقية التي يحتاجها الإنسان وتعينه على تقوية العلاقة النفسية والدينية بينه وبين خالقه سبحانه وتعالى ، هذه العلاقة التي يجب أن تكون قائمة في أساسها بعيدة عن كل غرض أو مقصد دنيوي مادي يضاف إلى كل ذلك أن نصوص هذه التوراة تحدد بوضوح الواجبات والفرائض التي تختص بها جوارح الإنسان دون أن تهمل في نفس الوقت أو

تتجاهل كافة ما يتعلق بواجبات القلوب وما يقع عليها من التزام بها ويبين أن جوارح الإنسان لا تستطيع أن تقوم بعملها على الوجه الأكمل إلا بعد اقتناع القلوب بتلك الأعمال.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لأول مرة في تاريخ التفسير الديني لنصوص العهد القديم عامة ونصوص التوراة بصفة خاصة يظهر مفكر يهودي يحاول أن يستخرج في تلك النصوص الدينية اليهودية مضمونا روحيا أخلاقيا ثابتا ، كما أنه يحاول في نفس الوقت أن يبلغ هذا المفهوم الأخلاقي الذي توصل إليه من هذه النصوص إلى أبناء طائفته بهدف تجديد تفكيرهم بحيث يخرجهم من دائرة البحث المستمر في الأمور المتعلقة بالترغيب والترهيب وأمور الحياة الدنيوية الخالصة ، وأن يوضح لهؤلاء أن الدين ليس ثواب وعقاب ، وإنما هو في جوهره إيمان واعتقاد وإخلاص وتوكل على الله وزهد في الحياة الدنيا ورغبة في الوصول إلى حب أعظم هو حب الله الواحد الأحد.

وإذا كنا نجد بعضا من الباحثين المحدثين يبالغون في الحديث عن إمكانات ابن فاقودة الفكرية ويضعونه في مصاف المفكرين المبدعين في الدعوة إلى علم الأخلاق والاهتمام بالروحانيات النابعة من النفس والقلب فإذا كان هذا هو رأي الباحثين فيه ، فإن الأمر يحتاج بلا شك إلى طرح تساؤل:كيف توصل ابن فاقودة إلى هذا الاتجاه الذي ضمنه كتابه؟ وما مصادره في كل ذلك؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول إن ما ذكره ابن فاقودة في هذا الكتاب لم يكن في مقدوره أن يعلنه ويفصل الحديث فيه إلا بعد أن تزود بفكر وثقافة خارجية ، واطلع على العديد من المصادر غير اليهودية والتي أتيحت له بحكم النهضة الفكرية والثقافية لعصره سواء في المجتمع العربي الإسلامي الذي يشكل الكثير في فكر ابن فاقودة ، أو في المجتمع اليهودي الذي دبت في أوصاله

نهضة أدبية وفكرية. استفاد ابن فاقودة بلا شك من تلك المصادر وطبقها على اليهودية أو على أقل تقدير سار على منهجها وتأثر بها واتبع سبيلها وبخاصة المصادر العربية الإسلامية ، وإن لم يكن أمينا إذ أغفل الإعلان عن تلك المصادر وأصحابها كما كان يعلن أحيانا عن بعض المصادر الأخرى.

وعلى أية حال فإننا نستطيع القول بأن كتاب الهداية إلى فرائض القلوب قد حاول فيه مؤلفه أن يقدم ولأول مرة تفسيراً واضحاً للجوانب الروحية والأخلاقية لليهودية ، التي شعر أن حكماء اليهود ومفسريهم قد أغفلوها ولم يهتموا بإبرازها في شروحهم وأحاديثهم ، وكان هدفه من ذلك كما يقول بعض الباحثين " هو تعميق الشعور الديني في عصره بين أبناء طائفته اليهودية ، وأن ينشر بينهم الدافع الروحي ، والإحساس بالتقوى والورع."[٢٤] دون أن يلجأ فيه إلى التعقيدات المحبطة أو الدخول في دروب الشروح والتفاسير الملتوية ، وإنما لجأ في هذا الكتاب إلى استخدام أسلوب يقترب كثيراً من مفاهيم عامة الناس الذين يعيشون من حوله. ولهذا فإن محتوى التوراة له أبعاد كثيرة ، وأن هذه التوراة " ليست مجرد كتاب يتضمن شرائع ومعاملات ، وإنما يتضمن كذلك أخلاقيات وروحانيات ، ولعله بذلك كان يرد على رجال اللاهوت المسيحيين في تلك الفترة الذين كانوا ينظرون إلى العهد القديم من هذه الزاوية ولهذا اعتبروا العهد الجديد بما يتضمنه من أخلاقيات مكمل للعهد القديم."[٢٥]

ومما لا شك فيه أن ابن فاقودة عندما شرع في تدوين كتابه كان يدرك جيداً أن موضوعه قد يكون غريباً على العديد من أبناء طائفته وخاصة من لم يكن لهم سابق علم بتلك الأمور التي أودعها الكتاب ومن أجل ذلك فقد أسس المؤلف منهجه في الكتاب بحيث يسير في صعود تدريجي في درجات الفهم والاعتقاد التي تؤدي في النهاية إلى قمة ما يصبو إليه وهو حب الله والإيمان به ، هذا الحب وذلك الإيمان لابد أن يكونا نابعين من الذات والقلب أيضاً ويزيد

ذلك ويؤكده ما ذكره الباحثون عنه من أن " جوهر هذا الكتاب هو وضع واجبات القلب أمام واجبات الأعضاء الجسدية."[٢٦]

إن ابن فاقودة عندما تخير لكتابه عنوان" الهداية إلى فرائض القلوب " إنما كان يهدف من اختيار هذا العنوان تأكيد وتوضيح كيفية القيام بكافة الواجبات الملقاة على القلب الإنساني ، والتي هي في نفس الوقت ضرورية وهامة لكل ما يتعلق من فرائض واجبة على الجوارح ، وأنه يريد من خلال ذلك كله" أن يظهر الدافع النفسي كعنصر يعطي للعمل الديني كل وزنه ، وأنه ينبغي توحيد واجبات القلوب كمجال خاص بالعمل الديني ، وأن التفريق بين واجبات القلوب وواجبات الجوارح هو التجديد الكبير الذي أحدثه."[٢٧]

وبناء على هذا كله فإننا نقول إن كتاباً يضم كل تلك الآراء الفكرية العميقة والتي لم تتعودها عقلية يهود العصر الوسيط حتى فترة ابن فاقودة لابد وأن يكون مجالاً واسعاً لآراء كثير من الباحثين بعد ذلك ، ومن هنا كثرت الآراء حول الهدف الرئيسي الذي من أجله اختار ابن فاقودة أن يقتحم هذا المجال الضخم إذ اعتبره بعض الباحثين مفكراً أصيلا ينشد التوفيق وإظهار ما لم يسبقه أحد إليه ، كما يعتبرون هذا العمل من الأعمال الفلسفية الهامة في تاريخ المعتقدات اليهودية.وفي الجانب الآخر نجد بعضاً من الباحثين يرون أن هدف ابن فاقودة من هذا الكتاب لم يكن هدف الفيلسوف ، وأن غرضه منه لم يكن مناقشة ما يتعلق بالعقائد اليهودية ، والتصدي للدفاع عنها والانتصار لها ضد من يحاول النيل منها بصورة أو بأخرى على نحو ما سبقه إلى ذلك سعديا سعيد الفيومي في المشرق العربي في بغداد.

كما أنه أيضاً لم يكن يهدف إلى شئ من البحث النقدي لأسس الدين والشريعة اليهودية ، أو محاولة التوفيق بينها وبين الفلسفة كما فعل سعديا أيضاً في كتابه الأمانات والمعتقدات.

لقد كان هدف ابن فاقودة من هذا كله هو هدف الصوفي الروحاني الذي يحدد اتجاهه واهتمامه باستمرار إلى تعميق الإحساس الديني بين أبناء طائفته اليهودية ، وأن يشيع بينهم الدوافع الروحية النابعة من أعماق القلب ، ويغرس في نفوسهم حب التمسك بالتقوى والورع في وقت كان ينبئ باضطراب فكري نتيجة لما كان يسود الأندلس عامة من شبه اضطراب سياسي ، وصراعات بين المرابطين وأمراء الإمارات العربية هناك من ناحية ، وبين المسيحيين الذين كانوا يأملون في إعادة الأندلس إلى قبضتهم كما كانت قبل الفتح العربي لها ، وما تبع ذلك من أحداث صرفت الناس إلى الماديات الدنيوية أو كادت ، يضاف إلى هذا كله أنه كان من أهدافه أيضاً الارتفاع بالتوراة إلى أعلى منزلة يمكن أن يوضع فيها كتاب دين بحيث يجعل هذا الكتاب يخرج عن أن يكون مجرد موسوعة قانونية تشريعية تنظم حياة الفرد اليهودي في مجتمعه ودنياه،وإنما هذا هو كتاب جامع،وسجل لأخلاقيات وروحانيات لا يمكن الاستغناء عنها.

ومن هذا المنطلق الذي كان يسعى إليه فقد أعلن بعض الباحثين أن كتاب الهداية إلى فرائض القلوب هو " في جوهره كتاب أخلاقي غرضه كما يتضح من عنوانه بعث ورفع الروحانية والتقوى الداخلية فوق الجمود في الدين."[٢٨]

واهتم كثير من الباحثين بإبراز هذا الجانب الروحي والأخلاقي في كتاب الهداية وذكروا أن ذلك ما كان يسعى إليه ابن فاقودة في هذا المؤلف ولذلك فإن" هذا الكتاب الذي ذاع صيته هو عبارة عن مقالة أخلاقية،وهو أول عمل منهجي علمي في الأخلاق يكتبه أحد اليهود"[٢٩]. ولقد ساد هذا الاعتقاد لدى كثير من

المؤرخين لحركة الفكر الديني اليهودي سواء في المشرق العربي أو في الغرب الإسلامي وشمال أفريقيا،بل إنه يكاد أن يكون هناك شبه إجماع بين هؤلاء المؤرخين على أن هدف هذا الكتاب لم يكن أبدا هدفا فلسفيا يسعى إليه المؤلف،وأن " الجانب الفلسفي ليس هو المحور الرئيسي لأهداف الكاتب ،وإنما كان هدفه الأساسي هو الجانب الأخلاقي،وكمال النفس البشرية التي يدونها لا يكون الإنسان إنسانا."[٣٠]

وإذا كان الباحثون من اليهود بصفة خاصة قد تناولوا كتاب الهداية إلى فرائض القلوب في العديد من الأبحاث والمؤلفات التي ظهرت في العصر الحديث على ضوء ما ظهر من فكر عقائدي وفلسفي وأخلاقي فإن ذلك كله لم يكن ليتاح لهم إلا نتيجة لهذا الاهتمام الكبير الذي أولته الطوائف اليهودية لهذا الكتاب والعناية به منذ أن ظهرت الترجمات العبرية الأولى للنص العربي الأصلي الذي كتبه به ابن فاقودة منذ البداية.هذه الترجمة التي قام بها كل من يوسف قمحي ، ويهودا بن تبون[٣١] وذلك في بدايات النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي.وإن كانت الترجمة التي قام بها يوسف قمحي قد فقدت،ولم يتبق منها سوى بعض الأجزاء القليلة والتي قام" א.ילינק أيلينق " بأعدادها وإخراجها للطبع معتمدا في ذلك على مخطوطة لهذه الأجزاء موجودة في مكتبة البلدية في ليبزج.وفي عام ١٨٤٦ م قام" בן יעקב-ابن يعقوب " بنشر هذه الأجزاء في ليبزج أيضا[٣٢]

أما عن الطبعة الأولى لترجمة الكتاب ترجمة كاملة والتي قام بها يهودا بن تبون فالمعروف أن الكتاب قد تم طبعه لأول مرة بعد ترجمته في نابولي ١٤٩٠ ميلادية،بعد ذلك تم طبعه مرتان في مدينة فينيسيا ، وكانت الطبعة الأولى منه في عام ١٥٤٨ . وقد دون على غلاف الكتاب" كتاب חובות הלבבות ". ألفه أحد الحكماء القدامى باللغة العربية،ووجدت منه ترجمتان

واحدة منها لرابينو بحيا المعلم العظيم،وهي جديرة بالاعتماد عليها،وبناء على ذلك اجتهدنا بكل ما في وسعنا أن نطبعه بصورة خاصة للفائدة العظيمة المرجوة منه.طبع في مطبعة يومبرجي في فينسيا.[٣٣]

ويفهم مما هو سطر على غلاف هذه الطبعة أن اليهود في تلك الفترة لم يكن لديهم معلومات كافية وواضحة عن الكتاب أو كاتبه وهل هو عربي مسلم أم عالم يهودي أندلسي،ولعلهم كانوا يعتقدون أن بحيا بن فاقودة ليس هو مؤلف الكتاب وإنما هو فقط من ترجمه من النص العربي إلى اللغة العبرية،وأن الكتاب من تأليف أحد الحكماء القدامى ، وليس ابن فاقودة هو الذي كتبه.ويبدو أن هذا الاعتقاد لدى الطوائف اليهودية في تلك الفترة قد ظل سائداً وساريا بين الطوائف اليهودية في مواطن عديدة واستمر لفترة طويلة. ولقد أشار إلى ذلك دافيد كوفمان في كتابه فقال:" وربما من ناحية أخرى قد سلبوا من رابي بحيا كتابه واعتبروه ترجمة من العربية قام بها بحيا في الوقت الذي نسبوا إليه كتاباً آخر لم يثبت أنه له."[٣٤]

وفي عام ١٩٢٨ قام الدكتور أسفروني بإعداد ترجمة يهودا بن تبون إعداداً حديثاً وكتب شرحاً مبسطاً لبعض فقراته وحواشيه.كما كتب له مقدمة عن حياة ابن فاقودة ، وفلسفته الدينية،وأشار إلى الطبعات العديدة التي تمت من قبل للكتاب. ثم أتى بالأجزاء التي تبقت من ترجمة يوسف قمحي وهي عبارة عن الفصول: السادس ، السابع ، الثامن ، التاسع ، والعاشر من باب التوبة."[٣٥] كما كتب بعض الملاحظات على ترجمة يوسف قمحي ذاكراً ما يقابلها من ترجمة يهودا بن تبون في تلك الملاحظات.[٣٦]

وفي عام ١٩٧٣ قام يوسف بن دافيد قافح-יוסף בכה"ד דויד קאפח" ببحث وتحقيق ومراجعة النص العربي ، وترجمته ترجمة حديثة اعتمد فيها كما

يذكر في كتابه على مخطوطتين رئيسيتين من مخطوطات كتاب الهداية. المخطوطة الأولى وهي مخطوطة مكتبة البودليان المرقمة برقم ١٣٢٥ وهذه المخطوطة كتبت بخط واضح تسهل قراءته كما يقول المؤلف. أما المخطوطة الثانية التي اعتمد عليها أيضا في تحقيقه فهي مخطوطة باريس ورقمها ٧٣٦,١ وقد ذكر قافح أن هاتين المخطوطتين محفوظتان في مركز المخطوطات التابع للمكتبة القومية في إسرائيل الأولى تحت رقم ٢٢٠٣٩ ، والثانية تحت رقم ١٢٢٤٨ ولقد أشار المحقق أيضا أنه يعتمد على النسخة العربية التي طبعها وعلق عليها د.أبراهام شالوم بن بنيامين يهودا في ليدن من عام ١٩٠٧-١٩١٢ ، وهي مطبوعة بأبجدية عربية بدلاً من الأبجدية العبرية التي كتب بها يحيا بن فاقودة كتابه هذا من بدايته بل إن قافح يعيب على أبراهام بن يهودا أو غيره من الذين ينقلون الكتب ويطبعونها بالحروف العربية وينهجون هذا النهج في الكتب التي وضعت في بداياتها بحروف عبرية. والغريب في ذلك أنه يعتبر نقل مثل هذه الكتب المكتوبة بالعربية اليهودية إلى الأبجدية العربية. يعتبر قافح ذلك منهجاً ضد التقاليد الربانية وأن طائفة القرائين من اليهود فقط هي التي تنهج مثل هذا النهج ، وأنه لا يجوز أن تطبق مناهج القرائين على آداب وتقاليد طائفة الربانيين.(٣٧)

ولقد قام قافح ولأول مرة بإعداد طبعته لهذا الكتاب بصورة تسهل على القراء متابعة النص الأول وترجمته فقد وضع النص العربي بأبجديته العبرية طبقاً لما دون به في الأصل مع ترجمة حديثة. وقد أكثر من الحواشي والتعليقات التي تفيد الباحث كثيراً في هذا المجال. ويمكن تقسيم هذه الحواشي إلى ثلاثة أقسام من الحواشي على النحو التالي:

الأولى:إشارات في مواضع معينة من النص تشير إلى اختلاف المخطوطات التي رجع إليها تحقيقه حول عبارة أو كلمة في

النص العربي،ونكر ما قد يوجد مخالفا أو زيادة عما هو مدون في النص. ومثل هذه الملاحظات ليست جديدة على الباحث،بل إنه يمكن أن نجدها عند أبراهام بن يهودا في طبعته العربية والتي نشرها في ليدن ١٩٠٧-١٩١٢ والسابق الإشارة إليها.

الثانية: دأب قافح على تخريج مواضع الفقرات التي كان يستشهد بها ابن فاقودة في ثنايا أبواب وفصول الكتاب ولم يكن يشر إلى مواضع الاستشهاد في النصوص الدينية سواء كانت من العهد القديم أو من نصوص المشنا والجمارا. وفي تخريجه لهذه الفقرات كان يحرص باستمرار على ذكر الأسفار وأرقام الإصحاحات والفقرات فيها وغير ذلك بصورة لا شك أكثر سهولة ونفعا للباحث أو القارئ.

الثالثة: وهذا القسم الثالث من أقسام حواشي كتاب قافح يعتبر في واقع الأمر من أهم الحواشي التي حرص المؤلف على إعدادها وتضمينها الكتاب عندما استقر رأيه على نشر الكتاب بترجمته الحديثة للنص العبري مع نشر المصدر العربي له وفي نفس الصفحات بحيث يوجد المصدر الأصلي العربي وفي مقابلته الترجمة العبرية الحديثة التي قام بها.

هذا النوع من الحواشي نجده تقريباً في كل صفحة من صفحات الكتاب ، وهي حواشي متنوعة طبقاً لرؤية المترجم وما حدث فيه من تغييرات إن وجدت وما إلى ذلك. من هذا على سبيل المثال ما نجده لديه عندما يلاحظ مثلاً اختلاف الترجمة التي قام بها بنفسه عن الترجمة التي سبقه إليها يهودا بن تبون حوالي القرن الثاني عشر الميلادي. ولا يكتفي بمجرد الإشارة إلى هذا الاختلاف وإنما يعلق عليه بتعليقات تتناسب مع الوضع الذي يجده محتاجاً إلى تعليق منه ويفرد لكل حالة معينة تعليقاً يتناسب معها. فهو على سبيل المثال إذا أحس بوجود

لختلاف جوهري بين الترجمتين وأن ترجمة ابن تبون على سبيل المثال ليست ترجمة سليمة من وجهة نظره ، فإنه لا يدع الأمر كما هو عليه بل يعلق على ذلك بقوله:" ואינו נכון."[٣٨] وليس ذلك صحيحاً أو يقول : " וטעות הוא "[٣٩] أي وذلك خطأ ، وقد لاحظ قافح أيضاً أن ابن تبون في ترجمته قد يلجأ إلى إضافة مفردات وألفاظ وعبارات قد لا تكون أصلاً من ألفاظ النص الأصلي،ولذلك كان قافح ينبه إلى مثل تلك الألفاظ الزائدة عن النص بعبارته التي تكررت كثيراً في كتابه حيث يقول" ואין זה במקור "[٤٠] ومعناها لا يوجد هذا في المصدر(أي النص الأصلي). وإلى جانب رصده العبارات والكلمات التي أضافها ابن تبون من عنده في الترجمة إلى المصدر الأصلي لكتاب الهداية،فإن قافح أيضاً قد رصد ما يكون قد حذفه ابن تبون أو تغاضى عنه من ألفاظ وعبارات وعلق على ذلك باستمرار بقوله " רב"ת הושמט "[٤١] أي وعند رابي ابن تبون حذفت أو أسقطت. هذا بالنسبة للمواضع التي قد يلاحظ في ترجمتها أي نوع من الاختلاف عن الأصل سواء كان هذا الاختلاف بالحذف أو بالإضافة أو ترجمة غير دقيقة من وجهة نظره.

والواقع أن الحواشي العديدة التي يزخر بها قافح تفيد القارئ فائدة كثيرة لأنها تلقي الضوء ولو بصورة مبسطة على بعض الأمور التي توجد في النص دون تفصيلات عنها،فإلى جانب ملاحظاته العديدة وتصويباته السابق الإشارة إليها والتي نبه قافح عنها في نسخته هذه فإننا في نفس الوقت نجده يعرف أحياناً ببعض ما جاء في النص العربي من أسماء الشخصيات،أو مؤلفات نسبها ابن فاقودة أو لم ينسبها لأصحابها.[٤٢]

وعلى الرغم من كثرة تلك الحواشي التي توجد في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريباً إلا أننا نلاحظ أيضاً أنه يقف كثيراً إلى جانب ابن تبون ولا يخطئه في ترجمته إلا نادراً جداً ، كما أنه كان يلتمس إليه الأعذار ، ملقياً

باللوم على النسخة الوحيدة التي لديه والتي ترجم منها ابن تبون ترجمته فيذكر أنه ربما كانت النسخة التي ترجم منها هي السبب في مثل الأمور التي أشار إليها في حواشيه وتعليقاته ، ومن الجائز أنه لم يتح له نسخة كاملة وسليمة كالتي أتيحت له ، ولعل ذلك هو السبب الذي كان من أجله يلجأ ابن تبون إلى الحذف أو الإضافة بكلمات أو عبارات وقد يصل الأمر أحياناً إلى حذف جزء بأكمله.

ويبدو أن المحقق كانت لديه أكثر من نسخة لمخطوط كتاب الهداية إلى فرائض القلوب فقط،ولم يعتمد اعتماداً أساسياً على النسخة المطبوعة في ليدن والتي نشرها أ.ش يهودا أو الترجمة العبرية التي قام بها ابن تبون. بل كانت لديه نسخة أخرى لمخطوطة نادرة لهذا الكتاب ويذكر قافح أنه كان يعتز كثيراً بهذه المخطوطة النادرة ، ويرجع سبب اعتزازه بها إلى أنها كانت أول بدايته في التعليم الجاد المثمر،فقد كان يقرأ في هذه المخطوطة أمام جده الحاخام والذي كان يقيم على ما يبدو في اليمن ، وأن هذه المخطوطة يمنية قام جده بجمع صفحاتها من أوراق الجنيزه العديدة التي تم اكتشافها والعثور عليها في مدينة صنعاء ، وما جاورها من بلدان أخرى. ولا يعيب هذه المخطوطة سوى أنها تنقصها بعض الصفحات المتفرقة المواضع. ويعلق قافح على وجود هذه المخطوطة اليمنية الأصل بقوله:" وهذا يعني أن هذا الكتاب-يقصد كتاب الهداية إلى فرائض القلوب- قد وصل إلى اليمن ربما في عهد قريب من الفترة التي ألفه فيها ابن فاقودة وعرف هناك ، وأخذ مكانته بين كل طوائف اليمن من اليهود ، وخاصة المثقفين منهم."(٤٣)

وفيما يتعلق بترجمة عنوان الكتاب إلى" ספר חובות הלבבות " طبقاً لترجمة ابن تبون ، فيبدو أن تلك الترجمة قد لا تتطابق مع العنوان العربي للكتاب كما نشره أ.ش يهودا وهو بعنوان" كتاب الهداية إلى فرائض القلوب." والذي غير يوسف قافح من ترجمة العنوان عن ترجمة ابن تبون حيث ترجمه

قافح" ספר תורת חובות הלבבות أي كتاب شريعة واجبات القلوب وهي ترجمة تقترب كثيراً من عنوان المصدر العربي وإن كان الأفضل لو ترجم عنوان الكتاب إلى: ספר ההדרכה לחובות הלבבות " إذ أن ترجمة عنوان الكتاب بهذه الصورة ربما يكون أقرب إلى مضمون عنوان المصدر الأصلي العربي كما كتبه ابن فاقودة.

هوامش المبحث الثاني

١- سعديا سعيد بن يوسف الفيومي :

يهودي الديانة ، مصري المولد والنشأة ، فهو من مواليد مدينة الفيوم بمصر ، وفيها تلقى تعليمه الأول ، ثم سافر بعدها إلى بغداد واستقر بها ونال هناك شهرة واسعة كواحد من رجال الفكر اليهودي الذين كانت لهم منزلة كبيرة وسط الطائفة اليهودية خاصة عندما دافع بشدة عن المعتقدات الربانية ضد طائفة القرائين التي أنكرت ما جاء به التلمود وأخرجته عن القدسية التي حاول الربانيون أن يسبغوها عليه. كما أنه وقف أيضا في وجه بعض الربانيين المنشقين على بعض التقاليد الربانية أمثال ابن مائير الذي أراد استحداث تقويم عبري يتعارض مع التقويم الشائع بين اليهود. ولقد ذكرت معظم المصادر التي أرخت لحياة سعديا وكتبت عن فكره أنه كان أثرا بارزا من آثار المعتزلة وتلميذا لهم في كل شيء سواء في تنسيق أبواب كتابه أو في معالجته لموضوعاته ومحتواه ، وظهر ذلك في تمسكه بنفس الأصول الخمسة التي كان المعتزلة يقيمون عليها كلامهم وهي: التوحيد- العدل- الوعد والوعيد- المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد تابع سعديا هذه الأصول واعتنقها وبحثها في فصول كتابه إلى جانب أنه أعطى للعقل سلطة كبرى مع الاحتفاظ للنقل بمكانته ومنزلته. وإلى جانب كتاب الأمانات لسعديا فقد ظهر أيضا تأثره الشديد بمعطيات الفكر العربي الإسلامي ومصطلحاته في ترجماته لأسفار العهد القديم إلى اللغة العربية والتي أعطى فيها مسميات عربية للعديد من تلك الأسفار. ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

أ- د. عبد الرازق قنديل : الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي (مدرسة الجاءونيم). دار التراث. القاهرة ١٩٨٤.

ب- د. علي سامي النشار : الفلسفة اليهودية وتأثرها بالفكر الإسلامي. منشأة المعارف بالإسكندرية.

-٢

The interpretero Dictionary of the Bible V.5.P.450 Suplementary volume.An Illustrated encyclopedia.Alingdon 1976.

٣- من الأمور الواضحة التي يلحظها الباحث عند الحديث عن اللغة التي كان يستخدمها اليهود في كتاباتهم ومؤلفاتهم هي تعدد هذه اللغات وتنوعها ، الأمر الذي يدل دلالة واضحة أن اللغة العبرية قد مرت بفترات ضعف وتقلص متتالية حتى ضاعت من الألسنة اللهم ما تبقى منها مستخدماً في طقوس العبادة والصلوات في المعابد.

وفي العصر الإسلامي ، وفي المجتمعات العربية خاصة لجأ اليهود إلى الكتابة باللغة العربية لأنها كانت اللغة التي يستطيعون بها التعبير عن متطلباتهم الفكرية بعد انحسار كل من العبرية والآرامية التي كانت قد حلت محل العبرية في فترة السبي وأصبحت هي اللغة السائدة بينهم حتى الفتح العربي. وكما كانت الآرامية التي دون بها اليهود معظم مؤلفاتهم قبل الفتح تكتب بأبجدية عبرية كذلك اتبع اليهود نفس الأسلوب عندما كتبوا باللغة العربية ، وإن كان هناك بعض الكتابات وخاصة لدى طائفة القرائين كتبت بأبجدية عربية. وقد كثر حديث الباحثين حول الأسباب التي جعلت اليهود يلجأون إلى هذا النمط في الكتابة وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

هذه اللغة العربية المدونة بابجدية عبرية هي ما يسميها الباحثون اليهود المحدثون باللغة " العربية اليهودية ". وبهذه اللغة دون يهود العصر الوسيط مؤلفاتهم العديدة في اللغة والدين والفلسفة والمعاجم وغيرها. وما زالت هناك مؤلفات عديدة كتبت بهذا الأسلوب لم يلق الضوء عليها حتى الآن وتحتاج إلى من يقوم بهذه المهمة لأنها مؤشر عظيم يوضح مدى عظمة الفكر العربي الإسلامي وأثره في تلك المؤلفات التي نقول عنها أنها مؤلفات عربية الفكر والمنهج والأسلوب خرجت بلا جدال من عباءة المفكرين العرب

حول هذه اللغة يمكن الرجوع إلى :

أ- יצחק אבישור: הספרות העממית של יהדי בבל בערבית-יהדית. עמ' 63. פעמים. מס. 3. סחיו תש"ם.

ب- Halkin,A.S:Judea.Arabic Litrature in L.finkelstein,the `jews.their history culture and religion III.P.790.1949.

جـ- יהושע בלאו : דקויות בניתוח הסגנון הערבי בכתבי רב סעדיה גאון ושמואל בן חפני. עמ' 39 פעמים. מס. 23.

٤- كتاب الهداية إلى فرائض القلوب. تأليف : الواعظ الديان يحى بن يوسف بن فاقودة الأندلسي.

اعتنى بطبعه د. إبراهيم سالم بنيامين يهودا. طبع أول مرة بالمطبعة البريليه في ليدن ١٩٠٧-١٩١٢. المقدمة ص ٢٢-٢٣.

٥- يقصد المؤلف بهؤلاء الذين عاشوا في العصر الإسلامي.

٦- اختصار يعني : عليهم السلام.

٧- ص٧ من مقدمة كتاب الهداية إلى فرائض القلوب. طبعة ليدن ١٩٠٧-١٩١٢.

٩- النوافل جمع نافلة وهي ما كانت من أمور العبادات زيادة عن الأصل الديني المعروف وسميت في العبادات بالنوافل لأنها زائدة على الفرائض التي يتحتم على المؤمن القيام بها ويعاقب على تركها. والنوافل في اللغة العبرية تسمى נדבה . وتعني الأمر غير المحتم وجوبه " דבר שאינו חובה " وقد ترجمها يهودا بن تبون الذي ترجم كتاب الهداية إلى العبرية بكلمة " התוספות " أي الإضافات أو الزيادات. انظر في ذلك: יוסף קאפח: תורת חובות הלבבות. עמ' 18.

٩- ص ٨ من مقدمة كتاب الهداية لفرائض القلوب. طبعة ليدن ١٩٠٧-١٩١٢.

١٠- انظر ص ٨ من مقدمة ابن فاقودة في كتاب الهداية طبعة ليدن.

١١- مقدمة الهداية ص ٩.

١٢- ذكر ابن فاقودة جملة من النصوص التي تتضمن ذكر القلوب وواجباتها سواء صراحة أو ضمنا ومن النصوص التي ذكرها ما نجده في: تث ١١: ١٣ حيث جاء فيه:

והיה אם- שמע תשמעו אל- מצותי אשר אנכי מצוה אתכם היום לאהבה את- יהוה אלהיכם ולעבדו בכל לבבכם ובכל נפשכם.

انظر أيضا من النصوص التي ذكرها تث ١٣: ٥ ، ٣٠: ٢٠. وكذلك من سفر اللاويين ١٩: ١٨.

١٣- انظر ص ٢٥ من مقدمة المؤلف لكتاب الهداية.

١٤- تع = تعالى.

وهو اختصار درج عليه معظم المؤلفين العرب ، ويظهر مدى تأثر ابن فاقودة بذلك واتباعه نفس الأسلوب العربي في الكتابة.

15- יוסף קאפח: ספר תורת חובות הלבבות לרבנו בחיי אבן פקודה. מקור ותרגום. עמ' 37-36. ירושליים. תשל"ג.

١٦- שם. עמ' 37.

17- ד"ר.א.צפרוני : ספר חובות הלבבות בתרגמו של ר.יהודה אבן תבון.עמ' 28.
הוצאת מחברות לספרות בסיוע מוסד הרב קוק.
18- יוסף דן : הסיפור העברי בימי הביניים.עמ' 9 בית כתר ירושלים 1974.
19- שמחה בונם אורבן : עמודי המחשבה הישראלית. חלק שני. עמ' 92.ירושלים. תשי"ד.
٢٠- خروج ٢٠: ٢-٣. " أنا الرب إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر من بيت العبودية ".
٢١- تثنية ٦: ٤-٦. " اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا إله واحد. أحب الرب إلهك من كل قلبك ، وبكل نفسك وبكل قوتك: ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك ".
٢٢- أ. ش . يهودا. الهداية إلى فرائض القلوب. باب التوحيد.
23- יוסף דן : הסיפור העברי בימי הביניים. עמ' 9.
٢٤- Jewish post Biblical History. P.105 -106.
٢٥- د. عبد الرازق قنديل : الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي ص ٢٤٤. مركز دراسات الشرق الأوسط بالاشتراك مع دار التراث. القاهرة ١٩٨٤.
26- צבי קרניאל : 900 שנה לחובות הלבבות. מאמר עתון דבר. 15 במאי 1981.
27- שמחה בונם אורבן : שם עמ' 91.
٢٨- L.Margolis,and Alexander Max : History of the Jewish people. P.320.
٢٩- Adel Belderse : Jewish post Biblical History through great personalites.P.35.

30- יוסף דויד קאפח : תורת חובות הלבבות עמ' 7.

٣١- يوسف قمحي :

يعتبر هو المؤسس لعائلة قمحي التي اشتهرت بالترجمة ، كان وولداه قد تأثروا كثيراً بالحضارة العربية وفكر علماء المسلمين،هاجرت عائلة قمحي من أسبانيا إلى تربونا. ترجم يوسف قمحي كتاب الهداية لابن فاقودة من العربية اليهودية إلى العبرية. ويذكر البعض أنه كتب تفسيراً للتوراة إلى جانب كتاب آخر في نحو اللغة العبرية على ضوء كتب النحو العربية المعروفة حتى عصره توفي عام ١١٧٠م .

** يهودا بن تبون :

يعده الباحثون من أوائل المترجمين اليهود من اللغة العربية إلى العبرية. عاش ما بين أعوام ١١٢٠- ١١٩٠م. ولد في غرناطة ثم تركها إلى مدينة لونيل جنوب فرنسا. ترجم كتاب الأمانات والاعتقادات لسعديا جاءون ، وكذلك كتاب إصلاح الأخلاق لابن جبيرول وكتاب الخزري ليهودا اللاوي ، وكتاب التنقيح لمروان بن جناح بجزئيه اللمع والأصول وكذلك كتاب الهداية لابن فاقودة. ويبدو أن الترجمة لهذا الكتاب كانت صعبة لوجود العديد من المصطلحات الفلسفية العربية التي تحتاج إلى ما يقابلها باللغة العبرية ، وقد نجح ابن تبون في إيجاد تلك المصطلحات . وقد أوضح في مقدمة ترجمته للهداية منهجه في الترجمة حيث يقول: " إنه يجب أن يترجم المصدر باديء ذي بدء كلمة كلمة ، وبعد ذلك يجب أن يرجع المترجم إلى الترجمة فيمهدها ويكتبها بأسلوبه كأنه هو الذي ألف الكتاب ،

32- יוסף קאפח : חובות הלבבות עמ' 7.

33- ד"ר א. צפרוני. שם . עמ' 17- 18.

34- דוד קופמן.

Die theologie des Bahya ibn pakuda P.7 Gesamm shriften 11. 1910. Frankfurt.

نقلاً عن كتاب د. سفروني حاشية رقم ١ ص ١٧ .

٣٥- انظر د. سفروني ص ٦٢٧ .

٣٦- انظر في ذلك حاشية ص ٦٢٧ وما بعدها من كتاب د. سفروني المشار إليه سابقاً.

٣٧- يوسف قافح : المصدر السابق ص ٩.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره قافح من أنه يفضل عدم نقل الكتب المدونة في أصلها بالعربية اليهودية أي أنها كتبت بأبجدية عبرية ، ونقلت إلى الأبجدية العربية مشيراً إلى أن هذا الأسلوب كان يسلكه علماء القرائين فقط وأن الربانيين لم ينهجوا هذا المنهج. ولعل قافح هنا يعود بنا إلى القرون التاسع والعاشر وما بعدهما حين انتشرت الكتابة العربية اليهودية بين الطوائف اليهودية الثلاث: الربانيين ، القرائين ، السامريين وغيرهم وما عرف عن طائفة القرائين من أنها كانت تفضل الكتابة باللغة والأبجدية العربية عكس الربانيين الذين كانوا يدونون مؤلفاتهم ورسائلهم بالأبجدية العبرية.

وحول الكتابات العربية اليهودية يمكن الرجوع إلى:

مكتبة المهتدين

ا- יצחק אבישור :

הספרות העממית של יהודי בבל
בערבית- יהודית. עמ' 63. פעמים. מס.
3. סתיו 1979.

ب- שאול שקד :

בין יהדות לאסלאם. כמה ענייניים
בתחום הדת העממית. עמ' 15.
פעמים.קיץ תשנ"ך.

←

Halkin,A.S:Judea.Arabic Litrature in finkelstein,the jews.their history culture and religion III.P.790.philadelphia 1949.

٣٨- من تلك الحواشي التي نلاحظها باستمرار ما نجده في الصفحات التالية من الكتاب ، على سبيل المثال لا الحصر:
ص ١٥ هامش ٢٦ ، ص ١٦ هامش ٤٢ ، ٤٣ وغيرها.

٣٩- انظر ص ١٤ هامش ٢٣.

٤٠- ص ١٦ هامش ٤٦.

٤١- ص ٥٢ هامش ٧٧.

٤٢- يمكن الرجوع إلى ص ١٨ من المقدمة حول هذه المسألة.

٤٣- يمكن الرجوع إلى الصفحات ٨-٩ من مقدمة يوسف قافح العبرية والتي تدور في هذا الإطار.

المبحث الثالث

المصادر العربية و الإسلامية في الهداية

سبق أن ذكرنا أن اللغة التي استخدمها بحيا بن فاقودة في تدوين كتاب الهداية إلى فرائض القلوب هي اللغة العربية وإن كان التدوين قد تم بالأبجدية العبرية على نحو ما كان شائعاً بين يهود هذا العصر. هذه اللغة من الثابت أنه كان يجيدها إجادة تامة , وعلى دراية واسعة بكل أبعادها وخفاياها رغم إشارته إلى عدم إتقانه لها في مقدمته. ويؤكد ذلك أنه لم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يترك لغته العبرية- تلك اللغة التي كان وأبناء طائفته يؤمنون بأنها لغة مقدسة- ثم يلجأ إلى لغة أخرى إلا إذا كان هناك ما يدفعه إلى ذلك من أسباب لعل أهمها أن العربية كما هو ثابت تاريخياً كانت هي اللغة السائدة في المجتمع الأندلسي , بل وفي المجتمعات العربية الإسلامية في مختلف الأمصار العربية بين طوائف اليهود وغيرهم من أهل الذمة.

هذه اللغة بمفرداتها ومصطلحاتها قد تركت لدى ابن فاقودة تأثيراً واضحاً , بل إنه اعتمد عليها اعتماداً كلياً عند الأخذ في تدوين كتابه وما فيه من موضوعات وقضايا كثيرة. فألفاظ تلك اللغة وتعبيراتها وما فيها من أمثال وحكم ومأثورات عربية وإسلامية كانت هي المادة الفكرية الأكثر ملائمة لموضوع هذا الكتاب من اللغة العبرية , ومن هنا نجد أنه قد اعتمد عليها , وأخذ منها , واستشهد بما فيها من مادة غنية تتناسب مع ما يريد أن يحتويه كتابه، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى القول بأن " كتاب ولجبات القلوب كما تروي دائرة المعارف اليهودية يحتوي دوراً كبيراً من الفكر والأمثال التي جمعها المؤلف من الأدب العربي متأثراً بها في تأليفه واستشهاده."[1]

ومن القراءة المتأنية الفاحصة لأبواب وفصول كتاب" الهداية إلى فرائض القلوب " نستطيع دون عناء أن نلحظ بين سطورها العديد من الأصول العربية والإسلامية التي كونت المادة الأساسية لهذا الكتاب , وتبدو واضحة في موضوعاته وقضاياه التي ذكرها مؤلفه , واستعان الكاتب كثيرا بها وإن كان دائما لا يشير من قريب أو بعيد إلى مثل تلك الأصول العربية إلا فيما ندر وعلى استحياء منه. وسنحاول في تلك العجالة أن نقف على بعض ما يحتويه الكتاب من مصادر عربية وإسلامية سواء كانت مصادر لغوية وأدبية متنوعة , أو ألفاظ ومأثورات إسلامية , وإذا كان من الصعب حصر شامل لمثل هذه المادة وتلك المصادر في هذا العمل فإننا في نفس الوقت نترك العديد منها لمن أراد المزيد من البحث والدراسة في هذا الشأن , ونوجز الحديث عن بعضها فيما يلي:

أولاً: المصادر اللغوية والأدبية:

على الرغم من العبارة التي ذكرها بحيا بن فاقودة في مقدمة كتابه والتي قد يفهم منها أنه لا يجيد اللغة العربية وبصفة خاصة اللغة الفصحى منها إلا أننا ومن خلال الأسلوب الذي اتبعه في الكتابة , نستطيع أن نقف دون عناء على مدى تمكنه من ناحية اللغة العربية التي تظهر بوضوح في سطور أبواب الكتاب وفصوله , حتى أن هناك بعض القضايا النحوية الدقيقة نجده على دراية بها ولعله يحاول أن يفهم القارئ سعة اطلاعه وإلمامه بأصول وقواعد النحو العربي , وإن صح ذلك فهو يتعارض مع ما صرح به في المقدمة بتواضع إمكاناته في اللغة العربية. ومن تلك القضايا النحوية العربية التي استخدمها في كتابه استخدامه على سبيل المثال لهجة بلحارث بن كعب , وهي تلك اللهجة التي يطلق عليها النحويون العرب" لغة أكلوني البراغيث ". وهم يعنون بذلك أن

لصحاب هذه اللهجة يجيزون جمع الفعل في الجملة إذا كان الفاعل جمعا على غير ما هو معروف في اللغة العربية باطراد.

لقد لجأ ابن فاقودة إلى هذه الظاهرة النحوية وكتب بها كثيرا في ثنايا مؤلفه , ومن لمثلة ذلك عنده بداية من مقدمته التي قدم بها الكتاب قوله في مقدمته للباب الأول:" وجعلت أكثر دلائلي عليه من الأمور المعقولة , وقربتها بالمثالات القريبة التي لا شك في صحتها وصدقها , ثم أتبعت ذلك بالمكتوب في كتب الأنبياء , ثم أتبعت ذلك بآثار النقل عن أوائلنا والأفاضل والحكماء من كل طبقة , الذين بلغتنا أخبارهم لما رجوت من سكون النفوس إليها وإصغاء القلوب إلى علمها مثل نوادر الفلاسفة , وآداب أهل الزهد في الدنيا وسيرهم المحمودة وقد قالوا أوائلنا."[٢] وفي باب " التوكل " نجده يكرر نفس الأسلوب فيقول:" والمتوكل على الله يخافوه الملوك."[٣] ويقول أيضا في هذا: " واحترموه الناس."[٤] ويستمر في اتباع هذا النهج اللغوي العربي حتى يكاد أن يصبح سمة بارزة لديه في جميع أبواب الكتاب أو أكثرها.

وتجدر الإشارة هنا فيما يتعلق بموضوع جمع الفعل أنه قد يتبادر إلى ذهن البعض أن هذا الجمع ربما يكون أثرا من آثار اللغة العبرية التي تعتاد باستمرار جمع الفعل في الجملة إذا كان الفاعل جمعا , وأن ابن فاقودة يفضل استخدام الصيغ العبرية في جمله , غير أننا لا نعتقد ذلك يؤيدنا في ذلك أنه لم يتمسك بمنهج واحد في الكتاب كله , بل كان في أحيان كثيرة يلجأ إلى عدم جمع الفعل , وأنه ربما جال بخاطره أن يظهر مدى مقدرته اللغوية حتى في لغة غير لغته العبرية , وأنه ليس أقل من العرب أنفسهم تمكنا من ناحية اللغة العربية ولهجاتها وبواطنها.[٥]

ولم تكن الصيغ اللغوية , وقواعد النحو العربي وما يتفرع عنه هي المصادر الوحيدة التي لجأ إليها الكاتب واستعان بها بل إننا نجده يتبع نفس أساليب العرب المسلمين وطرقهم في التدوين وبصفة خاصة ما يتعلق منها بكتابة الألفاظ والمصطلحات الدينية المتداولة بينهم , والتي كانوا يسلكونها عند كتابتهم للنصوص الدينية , ونعني بذلك ما اصطلح عليه في الفكر الإسلامي بالرسم العثماني أو الخط العثماني الذي كان المسلمون يحرصون على استخدامه في تدوين آيات القرآن الكريم. فهناك بعض المفردات حرص الرسم العثماني أن تدون بصورة خاصة في المصحف. من تلك المفردات على سبيل المثال: الزكواة , الصلواة , الحيواة كما في قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلواة إن الله مع الصابرين "[٦] وقوله تعالى:" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملئكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتمى والمسكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا "[٧] وقوله تعالى" ولكم في القصاص حيوة يا أولي الألباب لعلكم تتقون " [٨]

فمثل تلك الألفاظ كانت تكتب في المصحف بدون ألف.

هذا الرسم العثماني طبقه يحيا بن فاقودة في العديد من مثل تلك المفردات وغيرها دون أن يفطن إلى أن هذه الصورة في الكتابة خاصة فقط بكتابة القرآن الكريم لهذا نجده يستخدمها حتى في المفردات غير تلك المفردات ومن ذلك قوله:" وأصحاب الثلثة "[٩]. فإذا كانت العربية بين اليهود لم تظهر إلا بعد تواجدهم تحت المظلة العربية الإسلامية،فهذا يعني أن تلك الصورة في الكتابة لم يكن لدى اليهود أية دراية بها، ولم تستخدم لديهم في التدوين إلا بعد أن عاشوا وسط المجتمعات العربية وتحدثوا وكتبوا بلغتها العربية. ونحن نعلم أن سعديا الفيومي في بغداد قد استخدم نفس هذا الأسلوب في مقدمته لترجمة أسفار موسى

الخمسة[١٠] ومما لا شك فيه أن ابن فاقودة قد اطلع على هذه الترجمة واستوعب ما فيها , ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بصورة الكتابة التي كان قد استخدمها سعديا دون أن يكون على دراية تامة بمصدرها الأصلي , ومع ذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أنه حتى لو كان ذلك صحيحا , وأنه نقل عن سعديا هذا المنهج في التدوين فإن ذلك يعد أثرا واضحا من آثار الفكر العربي الإسلامي في الكتابة اليهودية التي عرفت في تلك الفترة.

هذا المنهج الذي وضح في كتاب ابن فاقودة يعكس حقيقة لا جدال فيها وهي وضوح ثقافته العربية وضوحا تاما , ومقدار تمكنه ودرايته بكافة مفردات الفكر العربي وعلومه الواسعة , بل والعديد من الألفاظ والعبارات العربية الشائعة يدل على ذلك استخدامه لها في مواضع متعددة من أبواب كتابه , من ذلك ما نجده عنده في باب الإخلاص حيث يقول:" ولا تشغل بالك من العلوم إلا ما تزين به عند أهل عصرك، وتتصنع به إلى أجلاء أهل زمانك من وزير وصاحب شرطة , وعامل , وذي خطة مثل:علم غريب اللغة , وقانون العروض , وأصول النحو , والشعر وطرائف الأخبار , ونوادر الأمثال , وشواذ الحديث , واستعمال مجالسته أهل البلاغة , وتعلم الكلام مع كل طبقات الناس."[١١]

هذه العبارات والمفردات العربية والتي وردت في ثنايا حديثه في باب الإخلاص إن دلت على شئ فإنما تدل دلالة قاطعة على أنه كان يعرف عن قرب ودراسة العديد من العلوم العربية والإسلامية التي كانت معروفة ومنتشرة في الأوساط العربية واليهودية على حد سواء , وأنه استعان بها , واقتبس الكثير منها , وأن معظم هذه العلوم لم يكن لها وجود في الفكر اليهودي المدون حتى ذلك الوقت الأمر الذي يجعلنا نعتقد بشئ من التحفظ أن ابن فاقودة ربما لو طال به العمر وتمسك بنفس المنهج الأخلاقي الذي سار عليه في هذا الكتاب لكان قد

قرب ولوشك على إعلان إسلامه،وقد يكون قد فعلها بينه وبين نفسه في الخفاء حتى لا يثير فتنة بين أبناء طائفته من ناحية،وحتى لا ينقلب الآخرون ضده من ناحية أخرى.(١٢)

وإذا كانت اللغة العربية , وعلومها وألفاظها ومصطلحاتها تعد ركيزة قوية في فكر ابن فاقودة ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب , فإن الأدب العربي وخاصة الشعر كان له دوره كذلك في جملة المصادر التي كان يلجأ إليها يستمد منها العون عند الحاجة لكي يدلل من المأثورات والأشعار العربية-دون أن يصرح بذلك-على صحة ما يذهب إليه ويؤيد رأيه , وإن كان اعتماده على الشعر العربي قد جاء بصورة أقل كثيراً من اعتماده على المأثورات الحكمية والمصادر الإسلامية ونصوصها الدينية بصفة خاصة إذ إنها المادة التي تتناسب مع ما يهدف إليه من وضع منهج أخلاقي لأبناء طائفته اليهودية. ونود أن نشير هنا إلى حقيقة لا ينكرها اليهود أنفسهم وهي أن ابن فاقودة لم يكن اليهودي الوحيد في العصر الإسلامي في الأندلس الذي كان يستعين بالتراث الفكري العربي و بصفة خاصة الأشعار العربية , بل لعله أقل هؤلاء اليهود استعانة بالشعر العربي وأخذاً منه في كتابه،فقد سبقه إلى ذلك الشاعر الفيلسوف سليمان بن جبيرول(١٠٢١-١٠٥٥) في مؤلفه المعروف باسم"رسالة في إصلاح الأخلاق " والتي كتبها أيضا باللغة العربية. وتضم هذه الرسالة كماً وفيراً من أبيات الشعر العربي.(١٣)

ومن الأشعار العربية التي استعان بها ابن فاقودة في ثنايا كتابه البيت الذي يقول فيه الشاعر العربي:

وإذا كانت النفوس كباراً ∴ تعبت في مرادها الأجسام.

ذكر ابن فاقودة هذا البيت في معرض حديثه في باب الإخلاص في عبارته التي يقول فيها محذراً من الإفراط في التمسك بالأهواء أو الحرص عليها" فإذا رأى الهوى منا حرصاً عليها،ونشاطاً إليها قال لنا قول الشاعر(١٤)

ثم ذكر لنا البيت السابق ، وهو بيت للشاعر العباسي أبي الطيب المتنبي ، غير أن ابن فالقودة لم يصرح بذكر اسم الشاعر ربما متعمداً في ذلك. والبيت من قصيدة طويلة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة ويقول في مطلعها:

أين أزمعت أيهذا الهمام؟ ∴ نحن نبت الربى وأنت الغمام[١٥]

ومع ذلك فالواضح أن المؤلف لم يكن يهتم كثيراً بالاستعانة بالأشعار العربية أو يحرص على ذلك إلا إذا كان في حاجة ماسة للاستشهاد بها، الأمر الذي كان يجعله في بعض المواقف يكتفي بذكر شطر واحد فقط من البيت، ولعل ذلك ربما يرجع عنده إلى غموض فهم معنى البيت أو الوقوف على الهدف المرجو منه، ولذلك قد يلجأ إلى الاكتفاء بجزء من البيت وربما غير في ترتيب ألفاظه أيضاً ففي معرض حديثه في باب الإخلاص أيضاً نجده يقول:" وإن رددت عليه، وقلت له نصحتني يا عدوي في جهادك لي ولطفك بي لتهدم قوتي، وتسرع صرعتي، وكيف أفر من النار إلى الرمضاء. "[١٦]

وعبارة المؤلف الأخيرة " وكيف أفر من النار إلى الرمضاء " ليست سوى الشطر الثاني من بيت الشعر العربي ويا ليته تركه بألفاظه وترتيب مفرداته بل غير فيها فتغير المعنى الأساسي وضاع الغرض منه وصحة البيت كاملاً هو:

والمستجير بعمرو عند كربته ∴ كالمستجير من الرمضاء بالنار[١٧]

فالبيت في مضمونه يحمل الهجاء لعمرو هذا الذي يبدو أنه كان مخيباً لآمال من يستجير به أو يلجأ إليه ولذلك شبه الشاعر من يستجير به فكأنه يهرب من شدة الحر وحرقة الشمس إلى النار وهي أشد حرقة من الشمس.

ثانياً: المفردات الإسلامية:

كان لابد لابن فاقودة وهو يكتب كتابه باللغة العربية في موضوع وقضايا تدور كلها في فلك الدين والأخلاق أن يبحث بدقة عن الوسائل التي تعينه على إتمام هذا العمل، ويستمد منها ألفاظه ومصطلحاته الدينية، ومن مخزون فكره وجد ضالته في الألفاظ والمفردات التي كان يستخدمها العرب المسلمون، وشاعت بينهم , وانتشرت في السنة الفقهاء والعلماء في كافة المواطن والأمصار العربية مشرقها ومغربها. وكما كان للنحو العربي , وقضايا اللغة والشعر دورهم الكبير في إمداده بما يحتاج إليه من مادة علمية موثقة أو لإظهار مقدرة فكرية وعقلية عنده، فقد كانت الألفاظ والمصطلحات الإسلامية أيضاً من المصادر الهامة والأصيلة في كتابه , اعتمد عليها , واستعان بالكثير منها في تأكيده لمسألة من المسائل التي طرحها أو ناقشها في مؤلفه , من ذلك على سبيل المثال لفظة" النوافل " وهي لفظة في صورة الجمع مفردها" نافلة ".

وهذه اللفظة من المصطلحات الإسلامية التي تتردد كثيراً على ألسنة المسلمين ويقصد بها ما يقوم به المسلم من أعمال تطوعية غير مفروضة أو واجبة عليه، يقوم بها المسلم تقرباً إلى الخالق سبحانه وتعالى رغبة في المزيد من رضى الله , وحرصاً منه أن يتزود دائماً بالحسنات , وتأكيد منه على حسن إيمانه بربه , كأن يقوم الليل والناس نيام يصلي ركعات غير الصلاة المفروضة , أو أن يصوم أياماً غير مفروض فيها الصيام , إذ لم يفرض الصيام سوى في شهر رمضان فقط , وما عدا هذا الشهر فالصوم نافلة إلا إذا كان لقضاء أيام أفطرها في رمضان لسبب ما.

فتلك الصلاة الليلية غير المفروضة , وصوم أيام غير مفروضة كلها نوافل يتقرب بها العبد إلى الله يثبت بها حسن طاعته لربه.

ولأهمية النوافل وقيمتها ومكانتها في الفكر الديني الإسلامي لتأكيد خضوع المسلم وخشوعه لله تعالى , ورغبة في حسن الجزاء من الله فقد وعد الله المتنفلين بأفضل الجزاء على ما يقومون به من نوافل يتقربون بها إليه فقد ورد في الحديث القدسي ما يؤيد ذلك ويؤكده فيقول الحديث:" حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة , حدثنا خالد بن مخلد , حدثنا سليمان بن بلال , حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب , وما تقترب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه , وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه , فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به , وبصره الذي يبصر به , ويده التي يبطش بها , ورجله التي يمشي بها , وإن سألني لأعطينه , وإن استعاذني لأعيذنه , وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن , يكره الموت وأنا أكره مساءته."[١٨]

ولقد تردد مصطلح النوافل ومشتقاته كثيرا عند ابن قاقودة بداية من مقدمته الطويلة للكتاب وكذلك في أبواب الكتاب وفصوله نذكر منها ما ورد لديه في باب التواضع عندما تحدث في ماذا يجب على الإنسان أن يتحلى بالتواضع والخشوع فقال:" إذا تولى عمل شيء من أعمال الطاعة لله نحو صلاة أو صدقة أو شريعة أو نافلة أو موعظة فلا يتناول ذلك وفي قلبه شيء من العجب أو كبرياء بل يتواضع ويتذلل بين يدي الله بظاهره وباطنه."[١٩]

ومن تلك الألفاظ والمصطلحات الإسلامية التي استعان بها ابن قاقودة وتكررت كثيرا عنده مصطلح " عز وجل " أو " جل وعز " وذلك عند ذكره لذات الله سبحانه وتعالى في أي موضع من المواضع كأن يقول:" كما قال الله تعالى عز وجل " وهذا المصطلح أيضا من قاموس المفردات الإسلامية التي لم

تعرفه اليهودية من قبل ذلك. ومن أمثلة ذلك أيضا ألفاظ " الحسنات "[٢٠] والسيئات وديوان السيئات وتلك أيضا مفردات إسلامية عرفها المسلمون من نص القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:" إن الحسنات يذهبن السيئات "[٢١] كما عرفوها أيضا من خلال الأحاديث القدسية والنبوية وشاعت في الفكر الإسلامي وحرص المسلمون على التمسك بها قولا وعملا , ولم يحجم ابن فاقودة عن أن يستعين بمثل تلك المصطلحات ويستخدمها كثيرا في كتابه في العديد من المواضع لتوضيح الفكرة التي يبغي إيصالها للقارئ.

ومن أمثلة ذلك ما نجده لديه في الفصل السابع من باب التوبة عندما يتحدث عن مفسدات التوبة فيقول : " والكبيرة إذا استغفر عنها صاحبها وتركها في طاعة الله تع فإنها لا تزال تنقص وتصغر حتى تذهب عن ديوان السيئات فيستقي صاحبها منها بالتوبة.[٢٢] " وقد استخدم ابن فاقودة أيضا التعبير الإسلامي" أسماء الله الحسنى "[٢٣] وهو مصطلح لم يكن لليهودية سابق عهد به من قبل , فأول معرفة لنا بهذا المصطلح عرفناه من نص القرآن الكريم في قوله تعالى : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون "[٢٤] وقال سبحانه وتعالى :" قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا "[٢٥] وقوله عز وجل " الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى "[٢٦]

ولم يكن رصد ابن فاقودة للألفاظ الإسلامية يتوقف فقط على تلك الألفاظ التي يستخدمها علماء المسلمين في كتاباتهم ومؤلفاتهم فقط , بل إنه كان يتتبع تلك الألفاظ حتى التي كانت تستخدم عمليا في فروض العبادات المختلفة من ذلك على سبيل المثال استخدامه لفظتي" الاستنجاء والاستنقاء ". وهما من الألفاظ التي حرص عليها المسلمون عمليا في حياتهم اليومية هادفين من ذلك إلى

طهارة الجسد قبل الشروع في القيام بأداء الفروض التعبدية الواجب القيام بها،أو التي تعتبر لديهم من باب النوافل غير المفروضة، وهو نفس الغرض والمعنى الذي كان يعنيه ابن فاقودة عندما قال في باب المحاسبة:" وإن تناول عملاً من فرائض القلوب والجوارح معاً مثل الصلاة والتسبيح لله تع فرغ نفسه من أعمال الدنيا والآخرة , وأخلى قلبه من جميع الأفكار الشاغلة له عن معنى الصلاة بعد التنظف والاستنجاء والاستنقاء من جميع الأقذار." (٢٧)

مثل تلك الألفاظ , والمفردات الإسلامية والتي تعارف عليها علماء المسلمين كانت تشكل مصدراً هاماً وأساسياً من جملة المصادر التي اعتمد عليها ابن فاقودة كثيراً في أبواب وفصول كتابه.إلا أنه- كما تعودنا منه- قد تجاهل وأغفل إغفالاً تاماً أية إشارة إلى مصدر وأصول تلك المفردات والمصطلحات التي أعانته كثيراً في كتابه.

وقد كان من واجب الأمانة أن ينبه القارئ اليهودي الذي خصص هذا المؤلف له , لإرشاده إلى سبيل المعرفة الحقة , نقول كان من الواجب أن يذكر له مصادر تلك الألفاظ والمصطلحات , وأنه استعان بها وأخذها من مفردات الفكر العربي الإسلامي لأنها خير ما يناسب الموضوع الذي يتحدث عنه , خاصة وأن هناك العديد من أفراد الطائفة اليهودية والذين خصص لهم هذا الكتاب وكتبه من أجلهم كما يفهم من مقدمته له. تلك الطائفة اليهودية من المفترض أن تكون غالبيتها غير مطلعة وعالمة بمثل تلك الألفاظ , بل وربما لم يكونوا يدركون معانيها. ولعل إغفال أو تجاهل ابن فاقودة الإشارة إلى مثل ذلك هو ما أوقع العديد من أفراد الطائفة اليهودية بعد ذلك بفترة طويلة وعند ظهور الكتاب باللغة العبرية في خطأ ربما غير مقصود حيث كانوا يعتقدون أن كاتبه رجل عربي وأن دور ابن فاقودة فيه هو دور المترجم الذي قام بترجمة النص إلى اللغة العبرية.(٢٨)

ثالثا: المأثورات الإسلامية:

كان الفكر العربي والإسلامي على مر تاريخه الطويل وما يزال إلى اليوم فكرا رحبا , متفرع الاتجاهات مجددا ومتجددا بفضل علمائه ومفكريه الذين كانوا يحرصون باستمرار على أن يدلي هذا الفكر بدلوه في كافة الأمور والقضايا التي تمس الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية للمجتمع العربي المسلم , ناهيك عن الدعوة الشاملة لكافة البشر للانضواء تحت راية الإسلام. دعوة بالحسنى والحكمة والرفق الذي يمس العقل والقلب فهي دعوة صادقة تنشد الخير للبشر أجمعين , ولذلك فقد جذبت إليها القلوب والأنظار في كافة العصور ومن كافة الأجناس. ولم يكن ابن فاقودة اليهودي الأندلسي الذي تربى وسط المجتمع العربي الإسلامي , ووقف على عظمة هذا الفكر ليستطيع أن يتخلص مما غذى عقله وفكره من هذه الثقافة العربية الرفيعة , خاصة وأنه يتعامل في هذا الكتاب مع أهم عنصرين مؤثرين يتوقف على صلاحهما صلاح الإيمان كله , وهما القلب والنوايا الطيبة الحسنة متخذا من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه والذي لا سبيل إلى القول بعدم معرفته بهذا القول. فالرسول يقول فيما أثر عنه" ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب." وقوله عليه الصلاة والسلام " إنما الأعمال بالنيات , وإنما لكل امرئ ما نوى , فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله , ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه."

ومن هذا المنطلق الفكري الواسع كان المأثور الإسلامي المتعدد والمتنوع يعتبر في فكر ابن فاقودة من أهم المصادر التي اعتمد عليها , وبصفة خاصة ذلك المأثور الذي يدور في فلك النزعة الصوفية والأخلاقية التي يوليها عنايته

الأولى , ويركز فكره عليها باعتبارها الركيزة الهامة في تربية الإنسان تربية تقربه بشدة من التقوى والصلاح , وتبعد به عن كل المفسدات والرذائل التي يحرص المؤمن دائماً أن يكون بعيداً عنها حتى لا يقع في الشبهات المحظورة. فهو باستمرار يحارب أهواء النفس ويحذر من الوقوع تحت وطأة هذه الأهواء إذ أنها ما تفتأ تحرص الإنسان على الغواية ، و تدفعه إلى الأخذ بزخرف الدنيا الفانية و التمسك بمباهجها . و هو في ذلك كله يتحدث بأسلوب وعبارات تعد أقرب ما يكون إلى ما يشيع في أقوال الصوفية والزهاد المسلمين، فنجده عندما يتحدث بلسان هوى النفس يقول: " شمّر عن ساعديك أيها المخدوع. وجد جدك أيها المفتون ، واخدم الدنيا واعبد أهلها عسى أن تصل إلى شئ من بغيتك فيها , ولا تتعرض لعمل من أعمال الآخرة إلا ما عسى أن يكون عوناً على الدنيا , ويرضى عنك فيها أهلها وخدمتها من الملوك."[٢٩] فذلك تحريض واضح من هوى النفس البشرية , عبر عنه ابن فاقودة بصدق، فالأهواء النفسية باستمرار تجد طريقها في النفوس الضعيفة , والقلوب الخالية من الإيمان بالله سبحانه وتعالى فتكون بذلك تربة خصبة لنزعات الشيطان وتحريضه.

ويستمر نهج ابن فاقودة في الأخذ من تلك المأثورات أو الأمثال العربية الإسلامية دون تحرج[٣٠] فيستعين بما تسعفه به ذاكرته وكلما كانت هناك حاجة إلى ضرب مثل أو استخلاص حكمة وعظة من قصة شائعة يمكن أن توحي بالحث على خلق حسن , أو فضيلة واجب التحلي بها يعتمد عليها ليؤكد ما يريد أن يجعله درساً مفيداً ولا يجده بين صفحات تراثه اليهودي. من ذلك أنه عندما رغب في أن يقول أن هناك بعضاً من الناس قد طبعوا- لضعف إيمان قلوبهم- على التملق والنفاق , والسير في ركاب الأمراء والحكام وذوي السلطة والجاه نجده يتمثل بمأثور عربي شائع في الفكر العربي فيقول:" ألا ترى يا أخي أن أكثر الناس ليس علة اجتهادهم في حفظ العلوم ونشرها إلا التنفق بها على الملوك فقط , وكذلك في كثير من أمور الشرائع , فإن العامة على دين

سلطانهم." [٣١] وتلك العبارة التي أنهى بها ابن قاقودة جملته هي نفسها ما كان يتردد في الفكر العربي في ذلك المثل السائر " الناس على دين ملوكهم " وإن كان ابن قاقودة قد غير في ألفاظه إلا أن المعنى المستفاد من المثلين واحد في الحالتين، وهو أن الناس غالباً ما تسير في ركب صاحب السلطة.

والدنيا في فكر ابن قاقودة شغلت حيزاً لا بأس به , وعبر عن ذلك في ثنايا أبواب كتابه , وخاصة عند التحذير منها , والتنبيه إلى عدم الاهتمام بالجاه والسلطة والمال فيها معلناً أن حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا تعدل شربة ماء إذا اشتد به الظمأ وأوشك على الهلاك ، كما أنها لا تساوي قطرات من المياه تخرج منه إذا احتبس عنده البول وفي ذلك يقول:" وقيل عن بعض الأمراء أنه قال لوزيره عظني وفكر ما لزم علي من الحقوق والنعم. فقال له الوزير: إذا منع منك الماء , أو امتنع منك الماء هل تعطي في ذلك ملكك وتشفى وتعود لما كنت فيه من الصحة خاصة. فقال الملك: أعطي ملكي كله وأشفى. فقال الوزير: لا خير يا ملك في ملك استوى في الماء."[٣٢] وهذه القصة بعينها ومضامينها الوعظية قد أخذها المؤلف من المأثور العربي وقد وردت هذه القصة بأكثر من رواية وكلها تجمع في نهاية الأمر على أن المال والجاه والملك لا يعادل شربة ماء يحتاجها الإنسان وقت الشدة.[٣٣]

وكما اعتمد ابن قاقودة في مصادره على المأثور العربي والإسلامي وعلى المثل السائر، فإنه في نفس الوقت لم يغفل المأثور الإسلامي المأخوذ عن الصحابة رضوان الله عليهم وعن التابعين. ففي الكتاب الكثير منها دون أن يشير كعادته إلى المصدر الذي نقل عنه. ومن تلك المأثورات الإسلامية ما نجده عند حديثه عن الكبر وتكبر الناس واستعلائهم في الحياة دون أن ينظروا ويتفكروا كيف خلقهم الخالق جلت قدرته في البداية فيقول نقلاً عن بعض العلماء " وقال بعض العلماء في هذا المعنى إني لأعجب ممن يجري في مجرى البول مرتين

كيف يتكبر ويشمخ بأنفه، فإن التفكر في هذا وشبهه من أمر الإنسان يوجب التواضع." [٣٤] فهذا القول مأثور إسلامي واضح ينسب إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " قوله:" قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيعذر إلينا أنفسنا , ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين "[٣٥]. ولقد ذكر الغزالي أيضا رواية أخرى لهذا المأثور حيث ينسبه إلى الأحنف بن قيس ، قال عندما جاء إلى مصعب بن الزبير وكان يمد رجليه فلم يقبضهما فقال:" عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين."[٣٦]

وما ذكره ابن قاقودة في قصته السابقة يوضح إلى حد كبير ما يريد أن يعلنه تجاه هذه الدنيا، وأن الحذر فيها واجب , وعدم الاطمئنان لها من باب الحكمة والفطنة فحب الدنيا لا يجب الإفراط فيه خاصة إذا كان الإنسان حريصاً في نفس الوقت على إيمانه بالله سبحانه وتعالى ومتمسكاً بطاعته رغبة في الآخرة التي إليها مآله الأخير. وهذا يعني أن اجتماع حب الدنيا والحرص عليها مع حب الآخرة في قلب الإنسان أمر من الصعب تحقيقه , وهنا يحتاج ابن قاقودة إلى أن يدلل على صحة ما ذهب إليه فيستعين بمأثور إسلامي فيقول: " وقيل إن الدنيا والآخرة كالضرتين إذا أرضيت إحداها أسخطت الأخرى."[٣٧]

والتحذير من الدنيا , وتكالب الناس عليها , وتمسك الإنسان بها , وحبه الشديد لها من الأمور التي وردت كثيراً في المصادر الإسلامية وفي المأثور الإسلامي بدرجة تؤكد أن تلك الحياة الدنيا لا تستحق من الإنسان كل هذا التمسك بها. وكانت آيات القرآن الكريم أول من نبه الناس إلى قلة الرجاء منها , وأن المتمسك بها وحدها غافلاً عن واجباته تجاه الآخرة سيكون نصيبه الخسران لا محالة طوال حياته إلى أن ينتقل إلى جوار ربه حيث يحاسب هناك على ما أهمل في واجباته. يصف الله سبحانه وتعالى الدنيا بأوصاف عديدة , تنفر المسلم منها

وتجعل الإنسان دوما على حذر في التعامل معها فيقول الحق تبارك وتعالى : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا " (٣٨)

وفي موضع آخر يقول تعالى : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور "(٣٩). ويقول عز وجل: " يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " .(٤٠)

وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليبلغ الأمانة , وليعلن دعوة الحق . وزهد في الدنيا التي كانت منزلتها عنده لا تساوي جناح بعوضة أو شربة ماء . واقتضته أمانة التبليغ أن ينقل هذا كله إلى أصحابه في جملة من أحاديثه النبوية الشريفة، فقال عليه الصلاة والسلام:" إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها "(٤١). ثم قال عليه الصلاة والسلام :" الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر ".(٤٢)

وكان صلى الله عليه وسلم حريصا باستمرار أن يذكر أصحابه بأن الزهد في الدنيا والابتعاد عن زينتها من الأمور التي تقرب العبد دائما إلى ربه فيقول عليه السلام:" ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " .(٤٣) ويقول:" إذا رأيتم من يزهد في الدنيا فادنوا منه ، فإنه يلقى الحكمة ".(٤٤) وقال أبو موسى الأشعري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ".(٤٥)

وحقيقة الأمر أن ابن فاقودة في أبواب كتابه الهداية وفي ثنايا فصوله العديدة قد ضم كماً هائلاً من المأثورات الوعظية والتعليمية والأخلاقية التي سبق وجاءت على ألسنة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو التابعين لهم، وكذا أهل الفضل والعلم والفكر من المسلمين وخاصة في عصور الإسلام الأولى ، وقد أصبحت هذه المأثورات حقيقة واقعة تعارف عليها الناس ، وأخذها الخلف عن السلف عصراً بعد آخر ، بل زاد حكماء المسلمين عليها ، وأنشد شعراؤهم العديد من القصائد حول الزهد في الدنيا ، والبعد عنها فهذا أبو نواس الشاعر العباسي يصور هذه الدنيا في صورة عدو يرتدي ثياب الصداقة ، فيقول:

أيا رب وجه في التراب عتيق ∴ ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب وسجعه ∴ ويا رب رأي في التراب وثيق
أرى كل حي هالكاً وابن هالك ∴ وذا نسب في الهالكين عريق
قل لقريب الدار أنك ظاعن ∴ إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ∴ له عن عدو في ثياب صديق[٤٦]

وكان أبو العتاهية من أشد الناس زهداً في الحياة الدنيا ، وكان " يهون من الدنيا إلى الحد الذي يدعو فيه إلى مخاصمتها وتجاهلها ، والاتجاه إلى الآخرة اتجاهاً كلياً "[٤٧] ومن أشعاره في ذلك قوله:

هي الدنيا إذا كملت ∴ وتم سرورها خذلت
وتفعل في الذين بقوا ∴ كما فيمن مضى فعلت

وحول هذا المعنى أيضاً ينشد الشاعر الأندلسي ابن عبد ربه في وصف الدنيا فيقول:

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة ∴ إذا لخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ∴ عليها ولا اللذات إلا مصائب
فكم سخنت بالأمس عين قريرة ∴ وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة ∴ على ذاهب منها فإنك ذاهب[٤٨]

ومن أشهر المؤلفات العربية والإسلامية في ذلك كتاب نهج البلاغة الذي يضم العديد من أقوال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الوعظ والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها. ومن يتصفح كتاب الهداية إلى فرائض القلوب يقف على كثير من المأثورات التي تتفق وتتشابه مع ما يضمه كتاب نهج البلاغة والتي تنمو باستمرار نحو الوعظ والتحذير. من ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن فاقودة في باب التوبة:

" وقد قيل: لا تنظر إلى صغيرة ما عملت ، وإنما إلى عظم من عصيت أمره ، ولا يسرك جهل الناس بسوء سريرتك ، بل ينبغي أن يحزنك علم الله بما تنطوي عليه ، واطلاعه على سرك وجهرك ، وحفظه عليك أكثر من حفظك لأنك تنسى وهو لا ينسى ، وتغفل وهو لا يغفل "[٤٩]

وعلى الرغم من هذا الكم الهائل من المأثورات العربية والإسلامية التي نقلها ابن فاقودة في كتابه سواء كانت بنصها أو بروحها ومضامينها وسواء كانت تلك المأثورات دينية أم أدبية ، وذلك إلى جانب العديد من المأثورات اليهودية سواء من العهد القديم أو من التلمود وشروحه وأبوابه.

نقول أنه على الرغم من ذلك كله فإن هناك ظاهرة واضحة في هذا الكتاب وهي أن ابن فاقودة كان باستمرار يشير أو يذكر المصادر التي كان يقتبس منها من العهد القديم أو من التلمود أو نقلاً عن علماء اليهود السابقين ، أو فلاسفة اليونان وغيرهم واستمر على هذا المنهج ولم يحد عنه إلا مع المصادر

العربيـة والإسـلامية فقـط إذ أنهـا المصـادر الوحيـدة التـي لـم يشـر إليهـا صراحة على الرغم من أنها تشكل عنده الغالبية العظمى من مصادره. بل من الممكن أن نؤكد أن كتاب الهداية كله أساسه ومحتواه ومضمونه عربي إسلامي بالدرجة الأولى. ومع ذلك لم يهتم ابن فاقودة بالإشارة إلى ذلك وإلى المصادر العربية و الإسلامية التي اعتمد عليها ونقل عنها. وكل ما ذكره فيما يتعلق بتلك المصادر كلمات قليلة كان يقدم بها للمأثور المنقول مثل قوله:" وقال بعض العلماء ، أو وقيل عن بعض الصالحين. وقد ذكر بعض الأفاضل. وقد قيل...إلخ حتى أن كل موضع يذكر فيه كلمة أو عبارة من تلك العبارات التي ذكرناها كانت تتبع بمصدر عربي أو إسلامي.(٥٠)

ابن فاقودة والفرق الإسلامية

فيما تقدم من صفحات أمكن التعرف – إلى حد كبير- على العديد من العبارات والمصطلحات العربية وعلى الكثير من الأمثال والمأثورات الإسلامية التي أخذت طريقها إلى كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ، وعلمنا أن البيئة العربية الإسلامية التي نشأ فيها مؤلف كتاب الهداية كان لها أكبر الأثر في أن يطلع ابن فاقودة على فكر هذه البيئة ويستوعب الكثير منه ، ويجد فيه مادة علمية أخلاقية ربما لا تتوفر في مصادره اليهودية ، فلم يتحرج في أن يأخذ منها ما شاء ، وعلى منوالها نسج منهج هذا الكتاب الضخم الذي أصبح له في الفكر الديني والأخلاقي اليهودي بعد ذلك منزلة كبيرة ، بل أكثر من ذلك فقد تأثر العديد من شعراء اليهود في الأندلس بكثير من المضامين الأخلاقية والدينية التي أعلنها ابن فاقودة ، وصاغوا تلك المضامين نظماً عبرياً في أشعارهم.[٥١]

وهنا يمكن أن نتساءل عما إذا كان ابن فاقودة قد توقف عند مجرد نقل نماذج لغوية وأدبية عربية وبعض المأثورات الإسلامية فقط وتأثر بها أم أن فكره وعقله قد تأثر أيضاً بمنابع أخرى من الفكر والثقافة العربية والإسلامية؟ .
إن الإجابة على هذا التساؤل توضح أنه إلى جانب ما سبق أن تأثر به ابن فاقودة فما زالت هناك منابع ومصادر إسلامية أخرى استقى منها ونقل عنها العديد مما في الكتاب.
فمن خلال ما أودعه من آراء وأفكار يظهر لنا أنه قد وقف على فكر واتجاهات العديد من الفرق والمذاهب التي عرفها المجتمع العربي في مسيرته إلى عصر ابن فاقودة. وأن هذه الفرق والمذاهب قد لعبت دوراً كبيراً في تشكيل العقلية اليهودية حتى قبل أن يكون لها أثرها الواضح في عقلية ابن فاقودة نفسه ، وأنه بلا شك قد قرأ وعلم فكر هذه الفرق واستوعبه جيداً يدل على ذلك إشاراته المتعددة للكثير منها ونقده أحياناً لبعض أفكارها واتجاهاتها ثم الأخذ من أفكارها نصاً حيناً ، ومعنى ومضموناً في أحيان كثيرة.

أ.إخوان الصفاء:

ولقد كان لفكر جماعة إخوان الصفاء[٥٢] التي نشأت في البصرة دور كبير ومؤثر في تشكيل عقلية وفكر ابن فاقودة ، وظهر ذلك بوضوح من خلال ما أودعه في كتابه من أفكار ومعتقدات اعتنقها وآمن بها نقف عليها بداية من مقدمة هذا الكتاب ، وفي ثنايا أبوابه وفصوله وبصفة خاصة في الباب الأول والذي جعله لشرح وجوه إخلاص التوحيد لله عز وجل. وإذا كان الباحثون على اختلاف أجناسهم قد اختلفوا – مؤيد ومعارض – حول ما إذا كان بحيا بن فاقودة قد تأثر بفكر واتجاهات الإمام الغزالي ، ونقل عنه العديد من هذا الفكر ، فإننا نعتقد أن الأمر قد يختلف كثيراً فيما يتعلق بموقفه من فكر واتجاهات جماعة إخوان الصفاء ، إذ لم نجد من بين العديد من الباحثين الذين تعرضوا لهذا الأمر من ينكر وجود علاقة فكرية بين تلك الجماعة وبين ما أعلنه ابن فاقودة في كتاب الهداية. كما لم ينكروا تأثره ببعض آراء تلك الجماعة واستعانته بأقوالهم ، ومصطلحاتهم . ومن الباحثين اليهود من أعلن عن وجود تلك العلاقة والصلة بين فكر كل من ابن فاقودة على نحو ما يبدو في كتابه وبين فكر إخوان الصفا كما يبدو من رسائلهم المعروفة ، ففي مقدمة د. سفروني لترجمة يهودا بن تبون لكتاب الهداية إلى فرائض القلوب يقول:" ومن الفلسفة العربية عرف جيداً الرسائل الخاصة بالفلاسفة العرب الذين يعرفون بإخوان الصفاء . فنجد عنده في كثير من المواضع الفرق بين الواحد الحقيقي والواحد المجازي ، وهذا الفرق نجده للمرة الأولى في رسائل إخوان الصفاء." [٥٣]

ومن خلال كتاب الهداية نجد أن موضوع الواحد الحقيقي والواحد المجازي قد شغل حيزاً كبيراً في فكر ابن فاقودة في معرض حديثه عن ذات الله سبحانه وتعالى ووجوده وذلك في الباب الأول من الكتاب حيث

نجد أن هذا المصطلح الذي وجد عند جماعة إخوان الصفا لأول مرة كما يقول سفروني قد تردد كثيراً عند ابن فاقودة بداية من مقدمته التي يقول فيها:" فنقول ربنا واحد كما تقول العامة بلا دليل ولا برهان ، وهل يلزمنا البحث عن معنى الواحد الحقيقي والواحد المجازي فينفصل عندنا هذا المعنى من سائر الآحاد الموجودين."[٥٤]

وبقراءة متأنية وفاحصة للباب الأول من الكتاب " باب التوحيد " نجده يعدد فصول هذا الباب وموضوع كل فصل من تلك الفصول ، وهنا نقف على نفس مصطلح " الواحد الحقيقي والواحد المجازي حيث يتكرر هذا المصطلح في بعض تلك الفصول. من ذلك ما نجده في الفصل الثامن من هذا الباب إذ يعلن ابن فاقودة قوله:" والثامن(يقصد الفصل الثامن) في شرح وجوه الواحد المجازي والواحد الحقيقي."[٥٥]

وبعد ذلك يأخذ المؤلف في شرح وتبسيط المعنى المقصود من مصطلح الواحد الحقيقي والواحد المجازي وهو في هذا الشرح يعتمد بصورة لا يمكن إنكارها على ما سبقه إليه فكر إخوان الصفاء[٥٦] الذي عرف عنهم من خلال ما جاء في رسائلهم. فقد ذكر ابن فاقودة في بداية حديثه في هذا الفصل قوله:" وأما شرح وجود الواحد الحقيقي والواحد المجازي ، فذلك أن الواحد اسم مشتق من الوحدة ، وهو معول على ضربين ، أحدهما عرضي وهو المجازي ، والثاني جوهري ثابت وهو الحقيقي..." .[٥٧]

ويشير أحد الباحثين إلى فكرة الواحد العددي أو الواحد الحقيقي كما يسميه إخوان الصفاء في رسائلهم بأن الواحد العددي أو الواحد الحقيقي هو الأصل والواقع والحقيقة التي لا تتغير أبداً إذ يقولون:" وإذا نسبت إليه بعض الصفات فما ذلك إلا عن طريق التقريب والمجاز

ليتقرر وجوده في عقول الجسمانيين. ويروق الإخوان أن يشبهوا الخالق بالواحد في الإعداد ، وذلك أن الواحد لا يتوهم أحد أن قبله شيئاً من العدد تقدمه ، وفيه أصل الكثرة كامنة بالقوة."[٥٨] ومن أجل ذلك نجد أنهم يقولون إن الواحد هو أصل الوجود الذي لا يتغير أبداً بفعل زمان أو مكان ، ويعبرون دوماً عن ذلك في رسائلهم حيث قالوا:" واعلم يا أخي بأنك إذا تأملت ما ذكرنا من ترتيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ، ونشوئه منه ، وجدته من أدلة الدلائل على وحدانية الباري جل ثناؤه وكيفية اختراعه الأشياء ، وإبداعه لها ، وذلك أن الواحد الذي قبل الاثنين ، وإن كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه ، فهو لم يتغير عما كان عليه ، ولم يتجزأ ، وكذلك الله عز وجل... وكما أن الواحد أصل العدد ومنشأه وأوله وآخره، كذلك الله عز وجل هو علة الأشياء ، وخالقها ، وأولها وآخرها ، وكما أن الواحد لا جزاء له ، ولا مثل له في العدد ، فكذلك الله جل ثناؤه ، لا مثل له في خلقه."[٥٩]

ويبدو أن موضوع الواحد الحقيقي والواحد المجازي قد شغل حيزاً كبيراً في فكر الباحثين المحدثين المهتمين بمسألة المعتقدات الدينية وأسسها ، من ذلك ما ذكره " سمحا بونام שמחה בונם " في كتابه حول ما يتصل بفكرة الواحد الحقيقي والواحد المجازي ، إذ أنه يذكر أن الواحد الحقيقي كما هو مفهوم من فكر ابن فاقودة والذي ثبت أنه نقله عن فكر إخوان الصفاء ، هذا الواحد الحقيقي يعني أنه الواحد الذي ليس له بداية ، كما أن ليس له نهاية أيضاً وذلك تأسيساً على أن كل من له بداية ونهاية يجوز له الوجود والعدم ، وكل من يحويه الوجود والعدم يتغير ، وأن التغير يتنافى مع الوحدانية ، فإذا كان من الممكن أن يتغير فهو في هذه الحالة يكون أكثر من واحد... وأن الواحد الحقيقي لا يعرف الزيادة في ذاته العليا ، وأن التوحيد الحق يعني استبعاد التعدد والزيادة

عنه. ولذا قلنا عن الله أنه واحد لا يمكن أن يكون ذلك بمثابة وصفه بأنه واحد ، لكن المقصود هو انعدام التعددية والزيادة.(٦٠)

منهج ابن قاقودة في الأخذ عنهم:

لقد كان لابن قاقودة أسلوبه ومنهجه في الأخذ عن جماعة إخوان الصفاء ، ومن خلال كتابه يمكن القول بأنه لم يكن يتقيد بالنقل النصي عنهم في كافة المواضع التي ينقل إليها ، بل كان يلجأ إلى التنويع في طريقة الاستفادة بفكر هؤلاء. فهو في بعض المواقف كان يلجأ إلى أسلوب إيجاز الفكرة أو الرأي الذي يرتضيه ثم يودع ذلك كتابه. وفي أحيان أخرى كان يلجأ إلى نقل معنى ومضمون عباراتهم نقلاً يكاد أن يقترب كثيراً من النص الأول لدى تلك الجماعة ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في باب المحاسبة في قوله:" فاسع يا أخي في اكتساب إخوان صدق ، وأصدقاء صفوة ، ليكونوا في عونك على دينك ودنياك بإخلاص نفسك وضميرك لهم ".(٦١)

فإذا دققنا وأمعنا النظر في هذه الجملة على ضوء ما نعلمه من سيرة جماعة إخوان الصفاء وكيف أنهم كانوا يحرصون حرصاً شديداً على أن يضموا إلى صفوفهم الصفوة من الإخوة الأجلاء ، والعديد من الأصدقاء الذين يقومون على تنشئتهم وتربيتهم تربية خاصة تقوم على تقسيمهم إلى مراحل سنية معينة لكل مرحلة منها نظامها التربوي الذي يضعونه لها بفكر وثقافة معينة. وكيف كانت هذه الجماعة تحافظ على كل فرد من أفرادها ، ولذلك كانوا كثيراً ما يتحدثون عن إخوان الصدق الذين ذكرهم ابن قاقودة في كتابه وفي عبارته السابقة ، ففي إحدى

رسائلهم يقولون: " واعلم أن الخطب في اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطراً من هذه كلها ، لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدنيا والدين جميعاً ، وهم أعز من الكبريت ، وإذا وجدت منهم أحداً فتمسك به ، فإنه قرة العين ، ونعيم الدنيا ، وسعادة الأخرة ، وابذل له نفسك ومالك ، وافرش له جناحك ، وأودعه سرك ، وشاوره في أمرك ، وإن هفا هفوة فاغفر له."[٦٢]

وبالإضافة إلى ما ذكره ابن قاقودة خاصاً بإخوان الصدق ، والذي وضح أنه تعبير ومصطلح معروف لوجده فكر إخوان الصفاء ، ولم يكن لابن قاقودة فضل فيه سوى فضل استعارته منهم نقول أنه بالإضافة إلى ذلك كله ، فقد استمر على نفس نهجه وأسلوبه في الاستفادة بما سبقه إليه إخوان الصفاء ، وكانت هناك آراء وأفكار ومصطلحات خاصة بهم لم تكن خافية على ابن قاقودة ولم يهمل أو يتحرج من استخدامها بنصها أحياناً أو بمعناها والغرض منها وأودع ذلك كله في كتابه ومن أمثلة ذلك ما ذكره في الباب الثاني من الكتاب والذي خصصه لشرح وجوه الاعتبار بالمخلوقين وفضل نعمة الله عليهم ومنه يقول:" والركن الثاني في أثر الحكمة الظاهرة في نوع الإنسان الذي هو العالم الصغير ".[٦٣]

فهذه العبارة التي ذكرها ابن قاقودة هنا وهي أن الإنسان هو " العالم الصغير " وعقد المساواة بين الإنسان والعالم في هذه العبارة نجد أن أساس تلك العبارة وأصلها نابع من فكر إخوان الصفاء على نحو ما يظهر في رسائلهم التي كتبوها ، وقد فطن إلى ذلك بعض الباحثين من اليهود أنفسهم فيما ذكره فافح في ملاحظاته على كتاب الهداية.[٦٤] ولقد تكررت هذه الفكرة أيضاً عند ابن قاقودة في الكتاب في

أكثر من موضع من هذا الباب.[٦٥] كما لاحظ الباحثون اليهود أيضا أن ابن فاقودة كان في بعض ا لأحيان ينقل ويستخدم نفس المسميات التي كانت جماعة إخوان الصفا تطلقها على ما يأخذونه من الفلسفة فيذكر سفروني في مقدمته مثالاً على ذلك حيث قال:" إن مقاييس أرسطو قد أطلق عليها رابي بحيا اسم " الأنواع " وهذا الاسم مأخوذ من إخوان الصفاء."[٦٦] وهذا يعني أنه كان يمزج في كتابه ما استقر في وجدانه ، وما تأثر به عقله وفكره مما عرفه عن المتكلمين المسلمين مع ما أعلنته الأفلاطونية الحديثة ، ويحاول التوفيق بينهما ، وهذا ما يتفق مع النتيجة التي استنتجها الباحثون خاصة ما يتعلق منها بموضوع وحدانية الله سبحانه وتعالى طبقا لما ذكره ابن فاقودة في كتابه وأن " وصف بحيا لوحدة الله إنما هو تركيب من علم الكلام الإسلامي ، وبعض آراء الأفلاطونية المحدثة مستمدة من كتابات إخوان الصفاء ".[٦٧]

ومن هنا لا شك في أن ابن فاقودة يعتبر صاحب عقلية وثقافة فلسفية واسعة ، وأن تلك الثقافة وهذا الفكر الذي ظهر في ثنايا الكتاب قد بني في أساسه على فكر وثقافة المجتمع الذي تربى فيه ابن فاقودة حتى أنه كان يعتمد على ينابيعه اعتماداً واضحاً وأنه قد أتجه بهذه الثقافة الدينية والفلسفية نحو الصوفية والأخلاقية. وأن ما يعاب على ابن فاقودة في منهجه وأسلوبه في الأخذ عن الفكر العربي الإسلامي بصفة عامة أنه يبدو أنه تعمد عدم الإعلان عن مصادره العربية في الوقت الذي أعلن فيه عن مصادره اليهودية. وقد تنبه الباحثون إلى ذلك حتى اليهود منهم وأعلن بعضهم عن تلك المصادر التي أخذ منها وخاصة الفرق الإسلامية وذكروا أنه " قد تأثر بصفة خاصة بإخوان الصفاء العربية التي ظهرت في نهايات القرن العاشر الميلادي في البصرة"[٦٨]

ب- الفرق الأخرى:

لا جدال في أن ما يوجد في كتاب الهداية يثير أمامنا قضية فكرية هامة لا ينكرها إلا جاحد منغلق الفكر والثقافة. وفحوى هذه القضية يتلخص في كم التأثير الفكري والعقائدي الذي تركه الفكر العربي والإسلامي في العقلية اليهودية التي نشأت وسط المجتمعات العربية سواء في المشرق العربي أو المغرب الإسلامي. وإلى أي مدى يمكن أن نؤكد بحق دور إنتاج المفكرين العرب المسلمين على اختلاف مناهجهم ونزعاتهم في فكر هؤلاء اليهود. لقد أعلن العديد من الباحثين في الغرب والشرق ومن بينهم اليهود أنفسهم عدم إنكارهم للدور الحضاري الرائد لمنابع الفكر العربي الإسلامي لدى ابن فاقودة ، كما أعلن الكثيرون منهم صراحة أن ما يتضمنه كتاب الهداية إن دل على شيء فإنما يدل على أن مؤلفه كان يتمتع بفكر واسع ، ومعرفة غير محدودة ، وكان قديرا على الاستفادة بدرجة كبيرة مما يتاح له من مادة فكرية ، ومن أي مصدر من المصادر فقد عرف العربية ودرسها فكرا ولغة ، كما عرف العديد من مفكريها وعلمائها ناهيك عن معرفته بالفرق الإسلامية واتجاهاتها ومناهجها الفكرية بداية من جماعة إخوان الصفاء.

ومن خلال صفحات كتابه يمكن التعرف بسهولة على أنه لم يكن قد اقتصر على فكر هذه الجماعة وحدها ، وإنما عرف إلى جانبها فرق إسلامية أخرى كان لها دور مشهود في تاريخ الفكر والعقيدة الإسلامية سواء في عصره أو قبل ذلك. وكعادته يبدو أنه عرف فكر هذه الفرق وتعمق فيه ، ووقف جيداً على ما قد يبدو من فروق دقيقة بين اتجاهاتها ومناهجها. وعبر عن تلك المعرفة العميقة من خلال كتابه الهداية. ففي

باب التوحيد يقول:" وفي ما جلبنا في إثبات وجود الخالق تع من جهة آثاره كفاية لمن فهم وأنصف ، وكفى بذلك ردا ودفعا لمذهب الدهريين الذين يعتقدون أن العالم قديم فافهم."[٦٩] فهو هنا يشير إلى فكر واحدة من الفرق التي ظهرت في فترة سابقة عليه في المجتمع العربي الإسلامي ، ويذكر أن ما كانت تنادي به هذه الفرقة من آراء كان يقوم على اعتبار أن العالم قديم. ولا ريب أن ابن فاقودة ما كان يمكنه معرفة ذلك كله إلا بعد أن يكون قد قرأ ودرس ثقافة مجتمعه العربي من بدايته ، إلى جانب اطلاعه على فكر هذه الفرقة واستقرار ذلك الفكر لديه.

كما أنه في نهاية هذا الباب أيضاً ، وبعد أن شرح بإفاضة تامة موضوع التوحيد والوحدانية لله تعالى ، والفرق بين الواحد الحقيقي والواحد المجازي طبقا لما فهمه وعرفه من خلال رسائل إخوان الصفاء في نهاية هذا الباب يختمه بالحديث عن مفسدات إخلاص التوحيد ، مشيراً إلى تلك الفرق التي اعتنقت مذاهب أخرى من شأنها أن تبعدها عن حظيرة الإيمان بالتوحيد لله جلت عظمته فيقول:" وأما مفسدات إخلاص التوحيد فكثيرة منها: الشرك بالله وهو على ضروب منها مذهبَ أصحاب الاثنين [٧٠] ، وأصحاب الثلاثة."[٧١]

وهكذا كان ابن فاقودة لا يحجم على أن يستدل على صحة ما يذهب إليه من فكر غير فكر طائفته التي ينتمي إليها ، ولا يتورع أن يأخذ ما يحتاج إليه من أدلة أو إشارات أو آراء يعضد بها ما يصبو إليه ، ويؤيد بها رأيه على نحو ما نجد في قوله في باب الإخلاص حيث قال:" وينبغي أن تعلم أن كل ما أكدت الشريعة علينا من أمر السبت ، ووردت في حفظه ، والذكر له ، ووعدت وتواعدت أنما الغرض به ، والقصد فيه نفي مذهب الدهرية عن أوهامنا وإثبات معنى الحدث والإبداع ، واعتقاده في نفوسنا إذ هو الرأي الصحيح

فافهم. فإذا ينس عن تلبيس هذا الأمر عليك أوقعك فى ضروب الشرك نحو مذهب الثنوية، ومذهب الناصرى فى التثليث، ومذهب أصحاب الطبائع، ومذهب جهاد أصحاب النجوم على اختلاف مذاهبهم. فإذا تحقق عندك أن الخالق تع ولحد أزلى كما تقدم لنا من القول فى أول هذا الكتاب زالت جميع هذه الشكوك عنك.[٧٢]

وإلى جانب معرفة ابن فاقودة بفكر ونزعة أصحاب الاثنين وأصحاب الثلاثة والدهريين فقد عـــرف أيضا غيرهم من الفرق حيث ذكر أولئك الذين يقولون بالجبر فى الأفعال ، وفى ثنايا حديثه عن الإخلاص للـــه تعالى ، ومجاهدة هوى النفس أشار إلى الجبريين فقال: " فإذا ينس منك من هذه الوجوه التى ذكرنا ، رماك فى بحر من الشكوك من معانى الجبر[٧٣] ، والعدل ، فإذا رأى منك غفلة عن أعمال الطاعة ، وميلا إلى المعاصى رام تحقيق الجبر عندك"[٧٤]. ، ويكرر ذلك فى حديثه فيقول بعد ذلك: " فهو يقلب عليك الحجج مرة بالجبر والقدر، وثانية بالعدل والاختيار على حسب ما يوافقه من خداعك وكسلك".[٧٥]

وكما عرف ابن فاقودة جملة ما ذكرناه من هذه الفرق والمذاهب التى شاعت فى المجتمعات العربية الإسلامية منذ فترة سابقة لعصره، وتفهم اتجاهاتها وأخذ عنها أو ذكر بعض آرائها وأشار إليها سواء بالرفض لها أو بقبول بعض ما جاء عنها ، فانه فى نفس الوقت قد تعرف على غيرها من الفرق الإسلامية إذ عرف جماعة المتكلمين المسلمين، وأصحاب الاعتزال ، وعرف الصوفية المسلمين، وكان لكل تلك الفرق والجماعات تأثيرها الواضح فى فكره ، ولم يتوقف الأمر على مجرد التأثير وإنما تعداه إلى الاقتباس لفكرهم، ونقله إلى فكره اليهودى على نحو ما هو واضح فى مؤلفه الوحيد ، الأمر الذى دفع كثير من الباحثين فى مجال الفلسفة والأخلاقيات إلى ذكر هذا

التأثير لدى ابن فاقودة ، فقد ذكر الدكتور على سامى النشار نقلا عن جورج فيدا فيما يتعلق بالفلسفة اليهودية ومدى تأثر فلاسفتها بفكر واتجاهات الفلسفة الإسلامية قوله : " ويرى فيدا أن اسم الكتاب نفسه مأخوذ من مصطلح معتزلى قديم ، فقد استخدم المعتزلة القدامى (فرائض القلوب) أو (أعمال القلوب) مقابل لفرائض الجوارح وأعمال الجوارح".[٧٦] ثم يعود الباحث ويذكر مرة ثانية أن جورج فيدا في حديثه قد ذكر أن " كل الأفكار التي تكوّن الإطار العام لكتاب الهداية إلى فرائض القلوب إنما هي مقامات الحياة الداخلية الباطنية لصوفية الإسلام".[٧٧]

وفيما يتعلق بمسمى الكتاب وما ذكره جورج فيدا من أن ابن فاقوده قد نقل مصطلح فرائض القلوب عن الفكر المعتزلى القديم متأثرا به في مقابل فرائض أو أعمال الجوارح. فإن الأمر على ما يبدو لم يكن عند ابن فاقودة في تأثيره على الفكر المعتزلى فقط ، بل وصله التأثير عن طريق غيرهم من مفكرى وعلماء المسلمين السابقين والمعاصرين له. ويرجع ذلك إلى أنه قد لوحظ أن فكرة أهمية القلب ودوره في ترسيخ الإيمان لدى الإنسان كانت من الأمور التي جاءت منذ بدايتها معلنة في نص القرآن الكريم والسنة النبوية.[٧٨]

ولقد أدرك المسلمون وتنبهوا إلى ذلك ولم يغفلوا عنه في أى فترة أو عصر من عصورهم قبل أن يتنبه ابن فاقودة إلى ذلك.[٧٩] ومما يؤكد ما ذهب إليه جورج فيدا ما جاء في دائرة المعارف اليهودية من أن " كتاب الهدية إلى فرائض القلوب يعتبر نموذجا لكتابات الصوفية الإسلامية التي تحاول أن تقود القارئ خلال مراحل مختلفة للحياة الداخلية للإنسان إلى درجة الكمال الروحى ، والاتحاد مع ذات الله أو على الأقل الاتصال بها".[٨٠]

القرن العاشر الميلادي فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئا، إذ أن التأثير قد يكون مباشرا من منابعه الأصلية ، أو غير مباشر عن طريق النقل عن الغير.[٨٥]

وإن كنا نعتقد أنه في مثل هذه الحالة فإن النقل هنا يعد نقلا مباشرا . فإن ما يفعله سعديا الفيومي وهو يهودي الديانة والمعتقد هو انه نقل فكر المعتزلة والمتكلمين المسلمين عن إيمان واعتقاد بصحة هذا الفكر ، وأودع ما نقله في كتابه المعروف [الأمانات والاعتقادات] . فإذا جاء ابن فاقودة ونقل ذلك كله عن سعديا ، فإنما هو اعتراف منه بتلك الآراء التي لم يبدل فيها سعديا أو يغير فيها أي شئ. لهذا فابن فاقودة هنا تلميذ نجيب من تلاميذ الفكر العربي الإسلامي ، قرأه ، واستوعب ما جاء فيه جيدا ، وآمن به وسجله في كتابه مشيدا به ، وداعيا إلى ضرورة الأخذ به في الحياة ، ليخلص القلب ويهتدي ، ويحسن الإيمان بالله والحب له.

ابن فاقودة و الأحاديث القدسية و النبوية:

لم ينفصل يحيا بن يوسف بن فاقودة التلميذ اليهودي النجيب للمجتمع العربي عن هذا المجتمع علما و فكرا و ثقافة بل تمكن من أن يلم إلماما كبيرا بروافد الفكر العربي و الإسلامي المتاحة له و التي لم تكن خافية علية ممثلة في العديد من العلوم العربية نحوها و أدبها الدنيوي و الديني على حد سواء و لقد أثبت بما دونه منها أنه قد قرأ تلك المؤلفات العربية واطلع على الكثير منها واستوعب ما أودعه المؤلفون العرب فيها من فكر ساهم كثيرا في حضارة الإسلام و المسلمين و أظهر في نفس الوقت معرفة جيدة بأمهات التراث العربي الرحب و المتنوع المجالات يؤكد ذلك هذا الكم الغزير الذي أخذه منها دون الإبانة عن أصحابه ومصادره ناهيك عن تلك المعرفة الواسعة بالعديد من الفرق الإسلامية التي شكلت في الثقافة العربية أهمية عظيمة وما يزال تراثها الفكرى محط الأنظار إلى اليوم فإذا كان ابن فاقودة قد ألم بفكر هؤلاء المفكرين و مذاهب ونظريات الفرق و استفاد من تراثها الأمر الذي لعب دورا كبيرا في تشكيل فكره وعقليته فهل لكتفى بهذا القدر الذي حصل عليه و أخذ عنه ومنه أم أن هناك روافد أخرى لها دورها أيضا و نقل منها إلى مؤلفة المعروف.

إن الباحث في ثنايا كتاب الهداية إلى فرائض القلوب وهو المؤلف الوحيد الذي عرفه اليهود عنه - لا يسعه إلا أن يقرر عن يقين أن كاتبه لم يقنع بما حصل عليه من علم ومعرفة عربية وإسلامية عامة بل أنه توغل في مصادر الفكر الإسلامي الأساسية ممثلة في المصدر الثاني بعد نص القرآن الكريم ونعني بذلك جملة الأحاديث سواء كانت قدسية أو أحاديث نبوية شريفة رويت بأسانيدها الصحيحة التي اطمأن لها مفكرو المسلمين على مر عصورهم بعد جمعها . لقد كانت تلك الأحاديث مصدرا كبيرا لا يمكن إغفاله من مصادر ابن فاقودة في كتابة ، استعان بنصها حينا و بمضامينها و معانيها في أحيان أخرى و إذا كان في تعامله مع نصوص الفكر العربي عامة قد أغفل أو تغافل عن

وكما ذكر جورج فيدا وأشار إلى حقيقة تأثر ابن فاقودة بمذاهب المتكلمين الصوفية حتى في اختيار مسمى كتابه ، فإن هناك أيضا من الباحثين اليهود من ذكر ما يتردد بين كثير من الذين اهتموا بفكر ابن فاقودة من خلال كتابه من أنه قد نقل تأثره فعلا بمذاهب المتكلمين المسلمين وفكر الفرق الإسلامية التي عرفت في المجتمعات العربية . من هؤلاء الباحثين اليهود يوسف قافح ففي تعليقه على العبارة التي كتبها ابن فاقودة في نهاية الفصل الخامس من باب التوحيد قال: " فلما كانت جملة هذا العالم متناهية، لزم أن تكون مبادئه متناهية العدد، فيجب أن يكون لهذا العالم أول لا أول قبله ضرورة ، فوجب لذلك تناهي المبادئ في الأول على ما قدمنا " .[٨١] هذه الفقرة التي كتبها ابن فاقودة يعلق عليها يوسف قافح في حاشية الكتاب فيقول: " هذه أيضا من المقدمات التي وضعها المتكلمون المسلمون ، وأخذت من رابي سعديا جاءون في كتاب الأمانات والاعتقادات في المقالة الأولى في الفصل الأول . وقد ذكرها موسى بن ميمون بعد ذلك في كتابه دلالة الحائرين جـ١ فصل ٧٣ المقدمة الحادية عشر".[٨٢] ويكرر قافح مثل تلك الملاحظات بعد ذلك في تعقيبه على قول ابن فاقوده : " والقديم هو الذي لا علة له ، وما لا علة له لا أول له ، وما لا أول له لا آخر له ، وكل ما له أول فليس بقديم ، وكل ما ليس بقديم فهو محدث. إذ ليس بين القديم والمحدث واسطة تكون لا قديمة ولا محدثة . فكل مؤلف إذا ليس بقديم ، فيلزم ضرورة أن يكون محدثا ".[٨٣] ويقول قافح :" تلك أيضا من مقدمات المتكلمين التي نقلها عنهم سعديا الفيومي في الأمانات والاعتقادات.[٨٤]

وعلى أية حال فسواء كان ابن فاقودة قد اطلع مباشرة على فكر الفرق الإسلامية من المتكلمين وأصحاب الاعتزال والصوفية إلى جانب الفرق الأخرى من الثنوية وأصحاب التثليث والجبرية أم أنه قد أخذ هذا الفكر وتلك المعتقدات والمذاهب نقلا عن واحد من مفكرى اليهود في المشرق العربي في

الإفصاح عن الروافد التي أخذ عنها، فما بالك وهو يتعامل مع أحاديث قدسية ونبوية قالها النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ولا نعتقد أبدا أن ابن قاقودة يجهل من هو النبي محمد عليه الصلاة و السلام ، وما تشكله أقواله أو أحاديثه في الوجدان الإسلامي باعتبارها المصدر الثاني في المعتقد الإسلامي ، و أن هناك فرقا بين النبي وبعض الصالحين الذين اعتاد ابن قاقودة أن يقول دائما قبل الإتيان بنص الحديث أو فحواه عبارة (وقال بعض الصالحين) أو (قيل) وغير ذلك من العبارات التي قد توحي للقارئ بأنه لا يعرف القائل ، وان كنا نرى أن مثل تلك العبارات إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم رغبته في الإفصاح عن صاحب الحديث أو المقولة . لقد أوضح وجود هذه الأحاديث في كتاب الهداية مدى اعتماد صاحبه في العديد من أبوابه و فصوله عليها وخاصة الأحاديث النبوية الشريفة نظرا لاحتياجه إليها عندما يريد تأكيد فكرة لديه أو للتدليل على صحة ما ذهب إليه ونفصل فيما يلي كيف كان تعامله مع تلك الأحاديث و إلى أي أحد أخذ منها و اعتمد عليها.

أولاً: الأحاديث القدسية :

طرق ابن قاقودة في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب العديد من الموضوعات التي ترسخ الأيمان في القلوب و أوضح السبل الواجب اتباعها للوصول إلى ذلك وفى الفصل الثامن من (باب التواضع) وهو (الباب السادس من كتاب الهداية يأخذ ابن قاقودة في الحديث عن كيف تصح الطاعة و الخشوع لذات الله سبحانه وتعالى فيقول (فلا تصح من الإنسان الطاعة لله إلا بإلزام نفسه جميع صفات العبودية له وهي التواضع له و الخشوع بين يديه و الانخفاض إليه و التبري[٨٦] إليه من جميع صفات الربوبية التي هي الكبرياء و العزة و التسانى و التفاخر و التشامخ و ما أشبه ذلك).[٨٧]

وهنا يشعر ابن فاقودة انه في حاجة ماسة إلى ما يؤيد ما ذكره ما أقول سواء من مصادره التراثية اليهودية مثل نصوص من العهد القديم أو التلمود أو بعض من أقوال الحكماء والمفكرين من أبناء طائفته أو من أى مصدر خارج عن ذلك وبصفة خاصة ما ذكره عن مسألة الكبرياء والعزة وأنها من الصفات الخاصة بذات الله سبحانه وتعالى فقط ، ولم يجد أمامه إلا المصادر الإسلامية التي تزخر بالعديد من النصوص التي تتوافق مع أقواله ، ووجد فيها ضالته فيقول: " وقبل الكبرياء رداء الله ، فمن نازع الله رداءه فكأنه قاسمه "[٨٨] . ومع أنه نسب هذا القول إلى المجهول ، إلا أننا نذكر هنا أن ما قاله ابن فاقودة بعد كلمة "وقبل " ليس سوى الحديث القدسي إلى أخرجه أبو داود في سننه في باب ما جاء في الكبر جـ٤ صـ٥٠ حيث ورد فيه {حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا محمد بن زياد ، قال: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منها قذفته في النار }.[٨٩]

ومعنى " ينازعني" هنا أن يتخلق بتلك الصفات التي هي من صفات الله سبحانه وتعالى ، " فيصير في معنى المشارك، وهذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه "[٩٠]. إذ لا يجوز أن يتصف الإنسان بصفات هي خاصة لذات الله ، ولذلك يتوعد الله من يحاول ذلك بالعذاب الشديد في النار. ومن هنا يظهر لنا أن ابن فاقودة في حديثه هذا لم يكن له فضل سوى أن أتى بحديث قدسي في مضمونه الواضح والذي ورد بأكثر من رواية عن رواة ثقة، ووجد في اكثر من مصدر عربي إسلامي اخذ ابن فاقودة عن أحدها ولم يفصح عن ذلك كعادته. ومن الأمور التي يلحظها قارئ كتاب الهداية انه على الرغم من استعانة المؤلف بالعديد من المصادر الإسلامية إلا أن ورود الأحاديث القدسية عنده قليل إذا ما قيس بالأحاديث النبوية الشريفة لديه.

وكتاب الهداية إلى فرائض القلوب قد حظي – كما نعلم – بأكثر من ترجمة إلى اللغة العبرية. وفيما يتعلق بالترجمة العبرية التي قام بها يهودا بن تبون للعبارة الواردة في الكتاب والسابق ذكرها، وكذلك الترجمة التي قام بها دافيد قافح لنفس العبارة ، فانه يلاحظ أن هناك اختلافا بين الترجمتين المشار إليهما وهذا الاختلاف يدل على عدم فهم دقيق لما يعنيه ابن فاقودة من معنى وهدف هذه العبارة فقد جاء في ترجمة ابن تبون قوله:" וְהַגְּדֻלָּה מַעֲשֵׂה הַבּוֹרֵא וּמִי שֶׁרוֹצֶה לְהִכָּנֵס עָלָיו בְּמַעֲשֵׂהוּ כְּאִלּוּ לְהִדָּמוֹת לוֹ [٩١] " أما ترجمة دافيد قافح لنفس العبارة فهي: " וְאָמְרוּ הַגְּוֹה לִבְוֹשׁ ה' , וְכָל הַנִּוֹטָל מֵה' אֶת לִבְוֹשׁוֹ כְּאִלּוּ הוּא חוֹלֵק עִמּוֹ[٩٢] " ومن الترجمتين السابقتين نلاحظ أن ابن تبون قد ترجم كلمة "الكبرياء" بالكلمة العبرية הַגְּדֻלָּה. إذ أن هذه اللفظة تعني : عظمة ، رفعة ، سمو وهكذا وهي تقترب في معناها إلى حد كبير من المعنى الذي قصده ابن فاقودة ، إلا أن اللفظة الأكثر قربا في المعنى فهي لفظة הַגְּוֹה التي جاءت في ثنايا ترجمة دافيد قافح، ولهذا يعتبر قافح إن ترجمة ابن تبون ترجمة غير دقيقة[٩٣] ومع ذلك فان المعنى الذي ذكره قافح في ترجمته لا يفي بنفس الغرض الذي هدف إليه ابن فاقودة من هذا القول.

ثانيا: الأحاديث النبوية:

أما فيما يتعلق باستفادة ابن فاقودة واعتماده في مصادر كتابه على الأحاديث النبوية الشريفة، والتي تعتبر في يقين الفكر الإسلامي المصدر الثاني

- بعد ما جاء في القرآن الكريم - من مصادر التشريع ، فانه بالنسبة لتلك الأحاديث ومدى نقله منها أو عنها فالملاحظ أنها تشكل أهمية بالغة في فكر ابن فاقودة ، ومصدرا قويا يقع تقريبا في المقام الأول من مصادر هذا الكتاب وذلك نظرا لكثرتها وتواجدها في أبواب الكتاب وفصوله العديدة ، الأمر الذي يتطلب من الباحث أفراد مؤلف خاص بها وبكيفية اعتماد ابن فاقودة عليها ، ولذلك فان ما نشير إليه من تلك الأحاديث في هذه العجالة لا يتعدى أمثلة منها فقط.

وقف ابن فاقودة على تلك الأحاديث وتفهم جيدا إلى أي حد كانت تمس العديد من القضايا والأمور التي تتعلق عن قرب بتوجيه الإنسان إلى كيفية الإيمان الحق ، وإرشاده إلى الطريق السوى و إلى سبل الخير والرشاد . وفطن بحاسته الإيمانية إلى اعتماد الأحاديث النبوية على مقدار ما وقر في القلوب من الإيمان ، وخلوص النية ، وصدقها لله عز وجل. وذلك كله كان الهدف الأساسي الذي كان يسعى إليه ، ويريد تأكيده في كتابه ليصل في النهاية إلى انه بالقلوب وما يقع عليها من أعباء، ومدى استعدادها لتنفيذ واجباتها يمكن أن يكمل الإيمان ويستقر. والمدقق في كيفية ورود مثل تلك الأحاديث في كتاب الهداية يلاحظ أن ابن فاقودة قد أتى بها بنصها تارة ، وتارة أخرى بمعناها ومضمونها دون إشارة أو تنبيه إلى أساسها المعروف به في الفكر الإسلامي ، وان كان ذلك هو منهجه الذي سار عليه بالنسبة لما يأخذه من المصادر الإسلامية بصفة عامة. ومن جملة تلك الأحاديث يمكن أن نقسمها إلى أقسام عديدة طبقا لما تمسه من قضايا وأمور إيمانية على النحو التالي:

أ- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:-

لاشك في أن مسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المسائل الحيوية والعقائدية التي يحتاجها الأفراد والجماعات

على حد سواء إذ عليها يتوقف كثير من سبل هذه الجماعات في حياتها . ومن هذا المنطلق حرص ابن قائودة أن يثبت في كتابه هذه المسألة ويفصل الحديث فيها مستعينا بالفكر الإسلامي وخاصة الأحاديث النبوية الشريفة. ومن المواضع التي نجد فيها أحاديث الرسول الكريم ما نجده على سبيل المثال في الفصل السادس من باب التواضع والذي يتحدث فيه ابن قائودة عن الصفات التي يجب أن تتوفر في كل من يريد أن يتواضع لله عز وجل وأول تلك الصفات التي ذكرها " العلم بالله عز وجل، وبصفاته الحسنى، وما فضل به الإنسان عن سائر الحيوان".[٩٤] ويستمر في تعداده لتلك الصفات إلى أن يصل إلى الصفة التاسعة منها فيقول: " والتاسعة الانتصار لله ممن عصاه، ولا يحمله سمحه للناس في خاصة نفسه على السمح في أمور الله تعالى ، و القول في أنبيائه و رسله وخاصيه و صفوته ، ولا يجرى في ظلم الناس بعضهم بعضا على سمحه في ظلمهم له بل ينصر المظلوم ، ويعين على الانتصاف بين الظالم ... ويهدى الناس إلى طاعة الله ، و يوبخهم ، ويقرعهم ، و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر بيده ، وبلسانه، و بقلبه على حسب طاقته ، و يسارع على أخذ حقوق الله من أهلها[٩٥]

و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر يعتبره الفكر الإسلامي ركنا أساسيا من أركان الإسلام ، حرصت علية رسالة الإسلام السماوية ، وتشبث به فقهاء المسلمين و علماؤهم على مر العصور ونبهوا إلى ضرورة التمسك بهذا الركن ، و اعتبرته بعض الفرق الإسلامية أحد المبادئ الهامة

التي نادت بها ، حتى صار هذا الركن يلي الفرائض في التمسك به و العمل على تنفيذه مهتديين في ذلك بما ورد في القران الكريم في أكثر من موضع .[٩٦] كما أن هناك العديد من الأحاديث النبوية التي تأمر المسلمين بضرورة التمسك بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر صراحة أو ضمنا حتى كاد أن يصبح فرض عين على كل مسلم و مسلمة .

و عبارة ابن فاقودة السابقة .. و إن كان قد خالف فيه منهجه الذي صار علية عند الإشارة إلى المصادر الإسلامية [٩٧] هذه العبارة تحمل في نصها نفس مضمون حديث الرسول (صلى الله علية وسلم) و الذي يقول فيه " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه و هذا أضعف الإيمان ". ومن عبارة ابن فاقودة السابقة يظهر أنة لم يكتف فقط بأخذ مضمون الحديث النبوى ، بل سار ينبه على ضرورة النهى عن المنكر بنفس الترتيب لمراحل هذا النهى طبقا لما جاءت به في حديث الرسول علية الصلة و السلام بداية من دفع المنكر باليد أولا ثم بالسان إن لم يتمكن الإنسان بدفعة باليد ، ثم أخيرا بالقلب .

ومما يؤكد ما ذهبنا إلية ما وجدناه من شدة حرص ابن فاقودة على ذلك في كتابة فقد كرر الحديث عن نفس موضوع الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر في باب المحاسبة فقال عن النهى عن المنكر " ويلزمنا النهى عن المنكر بثلاثة أسباب : أحدهما البطش باليد ... و الثاني الإنكار بالقول ... و الثالث الإنكار بالقلب "[٩٨]. و يعود مرة أخرى ليفصل

شرحه لهذا القول فيقول :" فان أمكنة الإنكار بيده كان مقصرا ، وان تعذر علية بيده لزمه الإنكار بقولة ، ومن لم يمكنه الإنكار بقولة لزمه ذلك بقلبه "[٩٩]. فابن فاقودة هنا قد أخذ من الترتيب المرحلي لدفع المنكر و النهى عنة طبقا لما ورد في حديث رسول الله منها ما سار علية ، كما يفهم من عبارته أيضا أنة قد أستوعب من الفكر الإسلامي أن دفع المنكر حتى و لو بالقلب أمر واجب على الإنسان ، و كلمة حق لابد من الإعلان عنها ، ومن يصمت عن الحق شيطان أخرس كما أوضح ذلك الرسول صلوات الله وسلامة علية في حديثة "الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ب ـ الحلال و الحرام و الشبهات حولهما :

و قضية الحلال و الحرام وما يدور حولهما ، وما قد يحيط بهما من شبهات قد توقع الإنسان في الخطأ أو المحظور في القول و العمل . هذه القضية أيضا من القضايا التي تعرض لها ابن فاقودة في كتابة في معرض حديثة الذي يدعو فيه إلى ضرورة التمسك بما أحل الله لعبادة ، وعدم البعد عن هذا المسلك حتى لا يتعرض للوقوع في المحرمات التي نهى الله تعالى عبادة عنها . كما نبه أيضا إلى ضرورة الدقة و الحرص على المسلك القويم الذي يبعد عن الوقوع في الحرام و خاصة ذلك الذي قد يوهم ظاهرة بأنة حلال وذلك لوجود شبهات حوله .

و من أجل ذلك كله نجده في الفصل الخامس من باب التوبة يهتم بهذه القضية ويوليها عناية خاصة معتمدا على ما

يتوفر لدية من فكر يتخذه سندا له على صحة ما يدعو إلية خاصة ما يوجد عنده من مخزون فكرى إسلامى واسع يقوم على ما نبه إليه القران الكريم[١٠٠] أو سنة النبي الكريم من واقع أحاديثه النبوية الشريفة . هذا المخزون الفكري الإسلامي كان ينبه إلى أن الحلال في بعض الأحيان قد يحاط بالشبهات التي إن لم يتنبه إليها المسلم قد توقعه في الحرام . وبناء على ذلك يأخذ ابن قاقودة في التحذير من تلك الشبهات فيقول :" و الثاني ترك الحلال الذي يؤدى إلى الحرام مثل الشبهات المشكوك فيها إن كانت حلالا أو حراما "[١٠١]. وهذا التحذير الذي نبه إليه يحتاج من إلى سوق دليل يدعمه ولا يسعفه في ذلك إلا التراث الإسلامي الذي يعلمه ، فيلجأ إلية كعادته يستعين به و ينقل عنة فيقول :" وقد قيل عن بعض الصالحين أنهم كانوا يتجنبون سبعين بابا من الحلال خوفا من باب واحد من الحرام ".[١٠٢]

وما نقله ابن قاقودة في هذه العبارة لا يدع أى مجال للشك ، و يؤكد أيضا على أنة كان على درجة كبيرة من الاستيعاب و المعرفة الدقيقة بكل ما يتعلق بوجهة نظر الفكر الإسلامي في مسألة الحلال و الحرام ، وما قد يغمض على المسلم منها في بعض الحالات ، وما إذا كان ذلك الأمر يعتبر من الناحية الإسلامية حلالا خالصا أم حراما . فالرسول صلوات الله و سلامة علية كما نعلم قد حذر كثيرا من الوقوع في مثل تلك الأمور ، و أمر المسلمين في غير موضع أن يتريثوا ، و يتثبتوا مما هم مقبلون عليه ، و يتركوا كل مالا تطمئن إلية نفوسهم و قلوبهم من الأمور بصفة عامة ، فقد قال

علية السلام في ذلك " دع ما يريبك إلى ما يريبك ".[١٠٣] فالريبة و الشك في مسألة من المسائل يجب على المسلم أن يبتعد عنهما . ثم عاد الرسول مرة أخرى ولوضح صراحة ما يتعلق بالشبهات حول الحلال و الحرام فقال :" الحلال بين، و الحرام بين، و بينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه و دينه ، ومن وقع في الشبهات وقع الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه ".[١٠٤]

و هكذا لا نجد صعوبة في القول بان المضمون الديني الذي هدف ابن فاقودة إلى إيصاله إلى أبناء طائفته من خلال كتابة بصفة عامة ، و عبارته السابقة بصفة خاصة ، ونسب ما ذكره إلى بعض الصالحين كما قال و إن لم يحدد هويتهم ،هذا المضمون هو نفس المضمون الذي يفهم من حديث الرسول صلى الله علية و سلم . كما أن هذه القضية - قضية الحلال و الحرام - تعتبر من أهم القضايا الدينية الإسلامية التي شغلت حيزا كبيرا لدى المسلمين الأوائل ، و ترددت كثيرا على ألسنة الصحابة و التابعين و أهل التقوى و الورع ،فأكثروا من عبارات التحذير من الوقوع في الشبهات التي قد تؤدى بدورها إلى الوقوع في الحرام الذي نهى الله و رسوله عنه ، ولهذا نجد التراث الديني الإسلامي غنى بما يتعلق بهذه المسألة و يظهر بصورة جلية في أقوال الزهاد و أهل الصوفه المسلمين الذين أخذوا فكرهم عن المسلمين الأوائل في صدر الإسلام و خاصة أولئك الذين تلقوا عن رسول الله . فقد ذكر القشيري في رسالته أن أبا بكر الصديق رضى الله عنة كان يقول :" كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب

من الحرام ". وذكر الحارث المحاسبي أيضا قولة :" لقد بلغني أن بعض الصحابة قال : كنا نترك سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام ".[١٠٥]

جـ – التوبة والاستغفار:

في الفصل الخامس من باب التوبة في كتاب الهداية عندما يتحدث ابن فاقودة متسائلاً عما إذا كان التائب من الذنوب يستوي في المنزلة عند الله عز وجل مع الإنسان الدائم الصلاح و الورع الذي لم يقع في الخطيئة أو يرتكب ذنبا من الذنوب ثم يعلن عن رأيه في هذه المسألة، و يتلخص هذا الرأي الذي توصل إليه في أن درجة المساواة بينهما عند الله واحدة فيقول في ذلك (فإذا تاب المقصر فيها إلى الله بقلبه و لسانة واجتهد في عمله ولم يعد إلى تقصيره فيها غفر الله له ذلك واستوى مع الصالح الذي لم يقصر و في مثله قيل (التائب من الذنب كمن لا ذنب له).[١٠٦]

فإذا نظرا إلى هذه المقولة التي ذكرها ابن فاقودة ، والى الجزء الأخير مها بصفة خاصة و الذي ينسب إلى مجهول لم يفصح عنه عن عمد على ما نعتقد فإننا نجد أن هذا الجزء هو نفس الحديث النبوى الذي رواه ابن ماجة من حديث ابن مسعود وهو :(التائب من الذنب كمن لا ذنب له).[١٠٧]

و التوبة من الخطايا و الذنوب أمر ينبع أساسا من قلب الإنسان الراغب في العودة إلى ربه الذي يؤمن بعدالته . و الرحمة والعفو من صفات الله سبحانه وتعالى فهو دائما رحيم بخلقه لا يغلق دونهم أبدا أبواب مغفرته و لذلك حرص القرآن الكريم أن يوضح ذلك للمسلمين في أكثر من آية معلنا

أن رحمة الله وسعت كل شيء وانه يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به ، وذلك إذا خلصت النية وتطهر القلب.[١٠٨] كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كثيرا ما أشار إلى أن ارتكاب الذنوب لا يبعد رحمة الله و مغفرته عن عبادة إذا تابوا و رجعوا عما كان لديهم من الذنوب أو الإصرار عليها إذ أن أول مفسدات هذه التوبة هو الإصرار على الذنب ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه في أحاديثه قد أعلن أن البشر جميعا معرضو للوقوع في الذنوب وذلك من صفات الطبيعة البشرية الضعيفة الأيمان بصفة خاصة ، غير أنهم إذا تابوا غفر الله لهم ذنوبهم فقد روى (عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و الذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفروا فيغفر الله لهم).[١٠٩]

عرف ابن قاقودة كل هذه الأمور و استفادة من المادة الإسلامية التي كانت شائعة في العصور الوسطى في المجتمع الإسلامي ولم يجد لديه ما يمنع من الأخذ عن هذا التراث الديني فنقل منه ما يتلاءم مع ما يريد أن يودعه في كتابه في باب التوبة و خاصة عندما يبدأ في الحديث عن مفسدات التوبة وان من هذه المفسدات إصرار المذنب على عدم ترك المعصية كبيرة كانت أو صغيرة ولذلك يقول (ومن أعظم مفسداتها الإصرار على المعصية وهو الدولم على عملها و التأخر عن الإقلاع عنها فلا تصح توبته مع ذلك . و قد قيل لا صغيرة في معاصي الله مع الإصرار ، ولا كبيرة فيها مع الاستغفار)[١١٠] فقد فطن إلى أن الإصرار على اقتراف الذنوب و المعاصي مهما صغرت تفسد التوبة و هذا القول

الذي عبر عنه ابن قاقودة قد وصلة من الفكر الإسلامي و إن لم يعلن عنة صراحة إذ أن ما ذكره في عبارته ما هو إلا حديث نبوي شريف فقد قال رسول الله صلى عليه وسلم (لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار[١١١] وان كان ابن قاقودة قد غير في ترتيب ألفاظ الحديث بأن قدم الجزء الأخير منه على الجزء الأول .

ولا شك في أن التوبة تدفع الإنسان إلى التواضع و الخضوع لله سبحانه وتعالى شرط أن يكون مخلصا في تواضعه وخضوعه أما إذا داخله العجب و الرياء فلا تقبل توبته ، ولهذا نجد ابن قاقودة يعقد مقارنة بين الإنسان الصالح الذي ثقلت نفسه بالذنوب غير أنه بدأ يثوب إلى رشده وعاد بالتوبة إلى حظيرة الأيمان . ولكي يوضح هذا الأمر ويبرهن على صحة ما يقول اعتمد على مصادر إسلامية من أحاديث النبي علية الصلاة و السلام أو أقوال صحابته فقال في باب التوبة (فأن الصالح لا يتواضع تواضع التائب الذي ذكرنا ، و لا يؤمن عليه الزهو و الأنفة و العجب بعملة ، وقد قيل رب سيئة أنفع للتائب من جملة حسنات الصالح ، ورب حسنة أضر على الصالح من جملة سيئات التائب إذا خلا قلبه من التواضع ولزمه العجب و الرياء وحب الثناء كقول بعض الصالحين لتلامذته لو لم يكن لكم ذنوب لخفت عليكم ما هو أشد من الذنوب ، فقيل له وما أشد من الذنب ، قال لهم العجب و الرياء)[١١٢]

و التراث الإسلامي كما نعلم غنى بالأحاديث النبوية التي تذم الرياء و العجب ولم تكن خافية على صاحب كتاب الهداية وهو الذي تثقف بالثقافة الإسلامية السائدة في عصرة وتفهمها جيداً و استوحى مضامينها و استشهد بالعديد من تلك الأحاديث في كتابه. و من أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه و سلم : إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء و الشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء)[١١٣] وقال عليه السلام أن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاء العباد بأعمالهم – اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء".[١١٤] ومن تلك الأحاديث أيضا ما ذكره القشيرى في رسالته من حديث رسول الله عن عبد الله ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :
(لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه ذرة من إيمان قال رجل يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا فقال إن الله تعالى جميل يحب الجمال ،الكبر من بطر الحق و غمص الناس).[١١٥]

ومن هنا يمكن القول أن أسس ما اعتمد عليه ابن قاقودة من مصادر خارجية يستدل بها و يستشهد بما جاء فيها يكمن بالدرجة الأولى في تراث العرب الإسلامي وفى مقدمتها الأحاديث النبوية الشريفة ، يأتي بها في ثنايا أقواله لا لشيء إلا ليبرهن علي صحة ما يذهب إليه. وضح ذلك في أكثر من عنصر من العناصر التي تطرق إليها و التي تشكل لديه

عناصر مهمة يجب توافرها لدى الإنسان حتى تتم فاعلية واجبات القلوب ، و حتى يخلص الأيمان بالله تعالى على نحو ما وجدناه لديه في حديثة عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، وما يتعلق بالحلال و الحرام ثم التوبة و الاستغفار.

٥- التوكل على الله والاعتماد عليه :

باب التوكل على الله من الأبواب الطويلة في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لأبن فاقودة. وفى هذا الكتاب أسهب كثيراً في الحديث حول ما يتعلق بالمتوكل و المتوكل عليه . بداية من تعريفة معنى التوكل ، وشروطه و أسبابه ثم الخصال التي يجب أن تتوافر في المتوكل على الله وهذه الأمور كلها لم يكن له فضل الإبداع فيها ، فقد سبقه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصحابته ومن اتبعوهم من فقهاء المسلمين و مفكريهم ، وليس له سوي فضل النقل عنهم سواء بالتصرف فيما ينقل أو أخذه بنصه الحرفى فقد أخذ الكثير من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى و من كتاب آداب النفوس لأبى عبد الله حارث ابن أسد المحاسبي المتوفى ٢٤٣هـ – ٨٥٧م . على ما سنوضح ذلك . وقد أفرد القشيري باباً خاصاً بالمتوكل وقال (واعلم أن التوكل محله القلب و الحركة الظاهرة تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله عز وجل وان تعسر شيء فبتقديره ، وان اتفق شيء فبتيسيره).[١١٦]

وبما أن التوكل على الله لابد أن ينبع أساساً من قلب عامر بالأيمان واثق بربه ، معترف بوحدانيته لذلك لجأ ابن فاقودة إلى المصادر الإسلامية المتمثلة في الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول موضوع التوكل إجمالا و تفصيلاً . فهو عندما يتحدث عن بعض صفات المتوكل ، وكيف يكون اعتماده على الله سبحانه و تعالى معترفاً بأنه وحده الذي يستطيع أن يمنحه ما يحتاج إليه إذا كان توكله خالصاً لله وحده فيقول (فالمتوكل على الله قوى الثقة بالله أنه يرزقه ما

شاء متى شاء ،ومن حيث شاء ، كما يرزق الجنين في الرحم و الفرخ في جوف البيضة التي لا منفذ لها إليه من خارج، و الطائر في الهواء و السمك في الماء ، و النملة و الدودة على ضعفهما ، ويتعذر الرزق على الأسد مع قوته في بعض الأيام)[١١٧].

و من اليسير على من يقرأ هذه العبارة أن يعلم أنها مستمدة بكاملها من التراث الإسلامي الغني ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي ترغب المسلم في التوكل على الله و السعي إليه و أن المتوكل على الله هو المؤمن فقال تعالى (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين).[١١٨] والى جانب القرآن الكريم وجدت أيضاً أحاديث الرسول الكريم ومنها ما روى عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً).[١١٩] و المتوكلون على الله حق توكله أيضاً من الذين أشار إليهم الرسول الكريم بأنهم يدخلون الجنة كما يفهم من حديثه الذي ذكره القشيري بسنده عن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أريت الأمم بالأمس فرايت امتى قد ملؤوا السهل و الجبل فأعجبنى كثرتهم وهيئتهم فقيل لي أرضيت فقلت نعم .قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون)[١٢٠]

وليس معنى التوكل على الله هنا هو الاستسلام وعدم السعي إلى العمل وكسب العيش بما أحل الله ، ولذلك حرص الفكر الديني الإسلامي دوما على أن ينبه إلى هذا وتنبه ابن قاقودة إلى ما احتواه هذا الفكر، واسترشد بما سبقه إليه المسلمون الأوائل من ضرورة السعى إلى العمل واعتبر أن الإنسان إذا لم يسع إلى العمل، ويجتهد قدر طاقته في طلب ما يحتاج إليه فانه لا يعد من زمرة الذين عناهم القرآن الكريم بالمتوكلين فيقول عن ذلك : " فان المحتاج إلى

الغذاء إذا صير بين يديه على ما يوافقه إن لم يتعرض لأكله برفعة إلى فيه ومضغه لم يسد خلة جوعه ".[١٢١]

وهذا يعني عنده وجوب العمل والسعي لكي يحصل الإنسان على بغيته وما أتى به ابن فاقودة من مثال هنا يبين انه حتى إذا اعد الطعام لإنسان ووضع بين يديه فان الأمر يتطلب منه أن يسعى بيده التي تعينه على تناوله و بأسنانه لتساعده في هضمه. فالأخذ بالأسباب والاجتهاد في السعي والعمل هما الركن الأساسي للتوكل الحق الذي يقوم في المرتبة الأولى على الثقة في الله والإيمان به. ولقد تردد هذا المعنى كثيرا لدى المسلمين الأوائل إذ " يروى عن وهب بن منبه انه سئل ابن عباس عن التوكل فقال: الذي يحرث ويبزر، ويذره بين المدر. وله أيضا عن معاوية ابن قرة انه قال : لقي عمر بن الخطاب أناسا من أهل اليمن فقال: ما انتم؟ فقالوا: متوكلون. فقال: كذبتم. انتم متأكلون . إنما المتوكل رجل القى حبة في الأرض وتوكل على الله عز وجل ".[١٢٢]

ويشرح ابن فاقودة السبب في ضرورة سعي الإنسان إلى رزقه بان ذلك لوجهين: " أحدهما لما أوجبت الحكمة من اختبار النفس في هذا العالم بالطاعة والمعصية ، فامتحنها بما يظهر ذلك منها وهو الحاجة والفاقة إلى ما هو خارج عنها من طعام وشراب ولباس وكن ونكاح. فأمرها بالتعرض إلى استجلابها بالأسباب المهيأة لها على وجوه مخصوصة ، وفي أوقات معلومة ، فما قدر الله إن يتم للإنسان منها قد وضح بصحة تأتي الأسباب ، وما لم يقدر الله له تمامه منها لم يتم وتعذرت عليه الأسباب. وصحت منه الطاعة والمعصية لله عز وجل وعز بالقصد والاختيار لإحداهما دون الأخرى. ووجب ذلك الثواب والعقاب، وان لم يصح للإنسان تنفيذ الفعل لها. والوجه

الثاني إن الإنسان لو كفى الشقاء والتعرض في استجلاب رزقه لأثر وبطر وبادر إلى المعاصي . ولم يلتفت إلى حقوق نعمة الله عليه".[١٢٣]

ومن الركائز الأولى في التوكل على الله كما فهمها ابن قاقودة من ثنايا الفكر الإسلامي عامة، ومن خلال مضامين أحاديث الرسول عليه السلام خاصة إن المتوكل على الله يجب أن يعلم جيدا انه ليس لأحد من الناس أن ينفعه أو يضره إلا بأمر الله سبحانه وتعالى. أعلن عن هذا الاعتقاد في مواضع متعددة في باب التوكل منها قوله في المتوكل: " أن يكون أمر المتوكل كله مصروفا إلى المتوكل عليه لا يمكن أحد ضره ولا نفعه ، ولا يقدر على الإحسان إليه ودفع المكروه عنه ".[١٢٤] ويركز على هذا المعنى ، ويكرره أيضا مبينا انه ليس لمخلوق أن ينفع حتى نفسه أو يضرها دون إرادة الله سبحانه وتعالى ، ودون أمره فيقول: " إن ليس بين أحد من المخلوقين نفع نفسه، ولا ضرها، ولا لغيره إلا بإذن الله تع".[١٢٥]

وطالما ليس في مقدور أحد أن يقدم النفع أو الضر لنفسه أو لغيره إلا بأمر الله ومشيئته كذلك لا يستطيع إنسان أن يقلل أو يزيد من منفعة آخر إذا كان الله قد خصص له شيئا معينا ، وقدرا محدودا من الرزق إلا إذا شاءت إرادة الله ذلك. وفي هذا المعنى يقول ابن قاقودة: " وإذا كان لم يقدر الله له اكثر من القوت لو رام أهل السماوات والأرض الزيادة عليه لم يمكنهم ذلك بوجه ولا بسبب ".[١٢٦]

فإذا آمن المتوكل على الله بذلك كله . واستقر كل هذا في قلبه فهو بلا شك لن يهاب أحدا من الناس، ولن يهتم بغير ثقته في المتوكل عليه. وهو كما

يقول عنه ابن فاقودة : " في أمن من جهتهم لعلمه إن نفعه وضره ليس في يد مخلوق ولا في قدرته، فلا يخاف ضرهم كما أنه لا يرجو نفعهم ".[١٢٧]

هذه المعانى والمضامين التي وجدت في عبارات ابن فاقودة السابقة والتى قد يتوهم الكثيرون انه ابتدعها ، ونسبها إلى نفسه نجد انه قد استخلصها – بعد تفهم دقيق ووعى – من ذلك الحديث الجامع من أحاديث رسول الله صلوات الله عليه الذي رواه الترمذي حين قال: { عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال: يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف "[١٢٨].

فكل المعانى التي أراد ابن فاقودة إيصالها إلى أبناء طائفته من خلال هذا الباب قد استوحاها من تراثنا الإسلامي ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام التي يتضح أنها تشكل بالنسبة له مصدرا دينيا غنيا لا غنى له عنه. هذا بالإضافة إلى اعتماده كذلك على مصادر إسلامية أخرى سيأتى تفصيل الحديث عنها.

لا جدال في أن ابن فاقودة ذلك الفيلسوف اليهودى الديانة والمعتقد ، العربي المنشأ كان بارعا في اعتماده على التراث العربي والإسلامى بدرجة كبيرة عند تأليفه الكتاب، كما أنه لا جدال أيضا في أن هذا التراث الإسلامي قد أصبح يشكل أمام الباحث المدقق أكثر المصادر التي اعتمد عليها. وقد أدت براعته في استخدام تلك المصادر والأخذ عنها صراحة إلى أن وضعه الباحثون المحدثون في منزلة لم يصل إليها أحد من اليهود قبله خاصة في مجال الأخلاق والتصوف اعتقادا منهم بموهبته الفذة، وعقليته الراجحة المبتكرة، وإيمانه العميق حتى قال عنه أحد الباحثين واصفا كتابه بأنه "عبارة عن مقالة أخلاقية ، وهو أول عمل منهجى علمى في الأخلاق يكتبه أحد اليهود ، ولأول مرة يوضح المضمون الأخلاقى لليهودية في نظام ثابت" .(١٢٩)

وتحدث آخرون عن نفس الكتاب وأبوابه ، وكيف أنه قسمها تقسيما منطقيا متدرجا ، حيث تبدأ هذه الأبواب بباب الإيمان بالله ، وأنه إله واحد لا شريك له ، وتتدرج هذه الأبواب إلى أن تنتهى بباب وجوب محبة الله ، وفى هذا يقول أحد الباحثين اليهود: "وأبواب الكتاب العشرة مقسمة طبقا للدرجات العشر التي يجب على الصوفى أن يمر بها حتى يصل إلى محبة حقيقة للذات الإلهية" .(١٣٠)

وعلى الرغم من وجود كثير من الباحثين في مجال الفلسفة وعلم الأخلاق والتصوف الذين رفعوا من شأن الكتاب وأشادوا بإبداع مؤلفه ومقدرته الخلاقة . نقول انه على الرغم من ذلك فقد تنبه في المقابل فريق من الباحثين إلى ما يبدو من شبه واضح بين أسلوب الكتاب ومنهجه في عرض موضوعات أبوابه ، وبين أساليب علماء المسلمين السابقين على ابن فاقودة في كيفية تناولهم مثل تلك الموضوعات ، وأعلنوا صراحة انه لابد أن تكو هناك علاقة بين المؤلف وبين هؤلاء العلماء من المسلمين تبدوا في أبسط صورها في أنه

لابد أن يكون قد قرأ ما كتبوا أو سمعه من المتحدثين والرواة ، فأخذ عنهم بطريقة تصل في بعض المواضع إلى درجة النقل الكامل أو الاقتباس من أقوالهم . ويؤيد ذلك ما ذكره أحد الباحثين من أن " أسلوبه في الكتابة كما هو ظاهر شديد الشبه بأساليب المسلمين ، مما حدا بسالمون يهوذا[١٣١] ، وجولد تسيهر إلى مقابلته ببعض ما كتبه المسلمون في هذا الباب ، فتبين للأول منهما أن بحيا ينقل في بعض الأحيان نقلا حرفيا عن بعض كتب الغزالى ".[١٣٢] وذكر آخرون عن هذا الكتاب أنه " صورة من الكتب الأخلاقية الإسلامية ، يحفل بالاقتباسات من فلاسفة المسلمين والأدب العربي والحكايات العربية".[١٣٣]

فإذا كان الباحثون تناولوا كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة بالبحث في أصوله ومصادره والمضامين الفكرية التي احتواها، وارجعوا البعض منها إلى تراثه اليهودى والكثير منها إلى تراث الفكر الإسلامي بصفة عامة ، و أعلن هؤلاء الباحثون في حذر مدى تأثره ونقله عن الإمام الغزالى في بعض مسائل الكتاب. فإننا بدورنا نضيف إلى ما توصلوا إليه ، واعتمادا على ما سبق إليه الباحثون من ناحية، وعلى المطالعة والمقابلة بين كل من كتاب الهداية لابن فاقودة وكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى من ناحية أخرى أنه ليس هناك ما يدعو لأى شك في أن ابن فاقودة اليهودى المعتقد قد نقل – دون تردد – الجزئين الأخيرين من كتاب إحياء علوم الدين نقلا يكاد أن يكون طبق الأصل على نحو ما سنذكره فيما بعد.

وكما كان الإمام الغزالى يعد تلميذا من تلاميذ أبى عبد الله حارث بن أسد المحاسبى ، ونقل عنه واستوعب فكره وعلمه ، كان ابن فاقودة أيضا تلميذا واعيا من تلاميذ الإمام الغزالى . تأثر به وبمنهجه ونقل تراثه الفكرى

والعلمى . غير أن الفارق بين الاثنين في نقلهما أو تأثرهما يكمن في أن الإمام الغزالى كان أمينا معترفا بفضل وعلم المحاسبى . بينما كان ابن قاقودة جاحدا لفضل السابقين، جانبته الأمانة العلمية فلم يعترف لأهل الفضل من أساتذته المسلمين بفضلهم ، ولم يقر بما أخذ عن أى منهم ، وكتب ما كتب منسوبا اليه وحده. ولكى يكون الحكم على ما أخذه ابن قاقودة من الإمام الغزالى منصفا، فإننا نلجأ إلى منهج المقابلة بين النصين: نص كتاب الهداية بأبوابه وفصوله ، ونص كتاب إحياء علوم الدين للغزالي الذي سيتضح منه نقل ابن قاقودة لما يقرب من نصف هذا الكتاب.

سبق أن ذكرنا أن كتاب الهداية إلى فرائض القلوب يتكون من عشرة أبواب ، كل باب منها يشمل بدوره على عدة فصول طبقا لموضوعه. أما كتاب إحياء علوم الدين فهو مؤلف من أربعة أجزاء أو أرباع بعنوان: " العبادات، العادات، المهلكات ، المنجيات".[١٣٤] وتلك الأقسام الأربعة طبقا لترتيب ورودها وما اشتملت عليه في الكتاب كالآتى:

أولا: ربع العبادات : وتحدث فيه عن العلم وقواعد العقائد ، وأسرار الطهارة، والصَلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار . . . الخ .

ثانيا: ربع العادات: وفيه تحدث الإمام الغزالى عن آداب الأكل ، وآداب النكاح، وأحكام الكسب، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

ثالثا: ربع المهلكات: وفيه شرح "عجائب القلب ، ورياضة النفس، وآفات شهوتى البطن والفرج واللسان ، وآفات الغضب، والحقد والحسد، وذم

الدنيا ، وذم المال والبخل، وذم الجاه والرياء، وذم الكبر والعجب، وذم الغرور، وقد درس في هذا القسم كل خلق مذموم ورد في القرآن الكريم بإماطته وتزكيته النفس عنه ، وتطهير القلب منه.[١٣٥]

رابعا: المنجيات: وفى هذا القسم نلاحظ ان الغزالى قد جمع فيه كل الصفات الحسنة، والخصال المحمودة التي يرغبها الإنسان، والتى بها يمكنه ان يتقرب إلى ربه. وأفاض في الحديث عن كل من تلك الصفات والخصال والتى منها: التوبة، الصبر والشكر، الخوف والرجاء، الفقر والزهد، التوحيد والتوكل، المحبة . . . الخ.

ومن النظرة المبدئية لهاذ التقسيم يمكن أن ندرك دون عناء أن القسمين أو الربعين الأول والثانى وهما ربع العبادات ، وربع العادات يتعلق موضوعهما بأعمال الجوارح ، أو واجبات الجوارح كالصلاة ، والصوم، والزكاة ، والحج وما إلى ذلك من ضرورة توافر النية الخالصة والتى محلها القلب. أما القسمين الثالث والرابع وما يحتويان عليه فانهما يختصان بكل ما يتعلق بأعمال القلوب وواجباتها التي يتحتم تنفيذها حتى يكتمل إيمان المؤمن. فإذا عدنا إلى كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لوجدنا أن المؤلف قد أعلن منذ البداية أن موضوعه، وهدفه هو الإباتة عن واجبات القلوب أو فرائض القلوب ، وذلك لأنه قد رأى من واقع ثقافته اليهودية الدينية إن أعمال الجوارح قد كثر الحديث عنها شرحا وتفسيرا واهتماما وذلك كله من واقع التراث الدينى اليهودى[١٣٦] الذي سبقه إليه علماء اليهود سواء في المشرق العربي مثال سعديا الفيومى، أو تلميذه شموئيل بن حفنى ، أم من المغرب الإسلامي من أمثال : مروان بن جناح وغيره.

ومن خلال ما كتبه و أشار إليه في تلك المقدمة التي وضعها في صدر الكتاب يتضح عزمه على تخصيص الكتاب للحديث عن فرائض القلوب ، و احتاج في ذلك إلى مصادر خلت منها اليهودية ، فلم يكن أمامه إلا الاتجاه إلى الفكر الإسلامي يستعين به، ويعتمد على عليه خاصة وانه اعترف في مقدمته بان علماء اليهود لم يتطرقوا او يهتموا بهذه الفرائض . وهنا اتجه ابن فاقودة إلى القسمين الآخرين من كتاب إحياء علوم الدين واتخذ من محتواهما موضوعا للكتابة. فإذا نظرنا إلى الربع الأخير من كتاب الإحياء بصفة خاصة وهو ربع المنجيات فإننا نجد أن أقسامه أو كتبه – كما يسميها الغزالى – هي نفس أبواب كتاب الهداية لابن فاقودة .

وتتضح لنا الصورة جليه بالمقابلة بين النصين على النحو التالى:

كتاب إحياء علوم الدين	كتاب الهداية إلى فرائض القلوب
١. كتاب التوبة	١. باب التوبة
٢. كتاب الصبر والشكر	٢. باب التزام الطاعة
٣. كتاب الخوف والرجاء[١٣٧]	٣. باب التواضع
٤. كتاب الفقر والزهد	٤. باب الزهد
٥. كتاب التوحيد والتوكل	٥. باب التوحيد ٦. باب التوكل
٦. كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا	٧. باب المحبة
٧. كتاب النية والإخلاص والصدق	٨. باب الإخلاص
٨. كتاب المراقبة والمحاسبة	٩. باب المحاسبة

٩. كتاب التفكر	١٠. باب الاعتبار
١٠. كتاب ذكر الموت	(ونجده في باب الزهد بصورة مطابقة)

من خلال هذه المطابقة بين الكتابين نجد أن ما تضمنه ربع المنجيات من مسائل موضوعات عشرة قد نقلها ابن قاقودة إلى كتابه ، وافرد لكل منها بابا خاصا بها عنده. وليس هناك من جديد لدى ابن قاقودة سوى انه فصل التوحيد عن التوكل وافرد لكل منهما حديثا خاصا بينما جعل الغزالى التوحيد والتوكل موضوعا واحدا وله حجته فى ذلك حيث ذكر أن التوحيد أصل التوكل لا يتم إلا به ، كما انه افرد كتابا لذكر الموت بينما جعله ابن قاقودة متناثرا فى اكثر من باب خاصة باب المحاسبة ، وباب الزهد.

هذا فيم يتعلق بمحتوى ربع المنجيات في كتاب الإحياء وما يقابله في كتاب الهداية . أما بالنسبة لربع المهلكات وهو الربع الثالث من كتاب الإحياء، فإننا نلاحظ أن ابن قاقودة لم يهمل هذا القسم على الرغم من انه لم يخصص له أبواب معينة في كتابه كما فعل الغزالى الذي تحدث عن كل جزئية في هذا الربع على حده، وبعكس ابن قاقودة الذي ضمن معظم أبواب ما يتعلق بتلك الموضوعات ويمكن أن نقف على بعض منها من خلال المقابلة التالية:

كتاب إحياء علوم الدين	كتاب الهداية إلى فرائض القلوب
١. آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج.	١. صفحات: ١٣١ – ١٤٨ – ١٥٢ من باب الالتزام
٢. آفات اللسان	٢. ص١٤٢-١٥٢ من باب الالتزام

٣. ذم الغضب والحقد والحسد	٣. صـ١٤١ من باب الالتزام صـ٢٧٢ من باب التواضع[١٣٨]
٤. ذم الدنيا	٤. صـ١٥٣ من باب الالتزام صـ١٦٧ من نفس الباب عند الحديث عن الغربة في الدنيا.
٥. ذم المال والبخل	٥. صـ١٧٣ من باب الالتزام صـ٢٦٤ من باب التواضع
٦. ذم الجاه والرياء	٦. صـ١٤٠-١٤١من باب الالتزام صـ١٥٣،١٤٩،١٤٨ من نفس الباب
٧. ذم الكبر والعجب	٧. صـ ٢٥٩-٢٨١ من باب التواضع
٨. ذم الغرور	٨. صـ ٢٩٦، ٢٩٧ من باب التوبة

وتجدر الإشارة والتنبيه إلى أن تلك المقابلة التي افترضناها هنا لا تعنى بالضرورة أن بقية أبواب كتاب الهداية قد خلت من الحديث أو التعرض لتلك الموضوعات التي ينتج عنها هلاك الإنسان والتى عددها الغزالى في ربع المهلكات من كتاب الإحياء، و إنما ما ذكرناه في المقابلة لا يخرج عن كونه أمثلة فقط أردنا بها الإشارة إلى أن هذا الكاتب اليهودى لم يكد يترك شيئا جاء ذكره عند الغزالى إلا ونقله أو ذكره تضمينا أو تصريحا.

ومما تقدم فى هاتين المقابلتين بين ما جاء فى كل من كتاب الإحياء، وكتاب الهداية فإننا نطمئن إلى القول بأن أبواب كتاب الهداية العشرة، هي نفسها أبواب قسمى كتاب إحياء علوم الدين للغزالى وهما ربع المهلكات وربع المنجيات. الأمر الذي يبين مدى اعتماد ابن فاقودة على هذين القسمين اعتمادا يؤكد من ناحية أخرى نقله لتلك المسميات التي أطلقها الغزالى، ولا

نقول مع من يقول إن الأمر يقتصر فقط على مجرد التأثر بالفكر الأخلاقي الصوفي عند علماء المسلمين، و أهل الفكر منهم ، بل انه من الواضح أن الأمر قد تعدى فكرة التأثر وحدها، ووصل إلى درجة النقل الحرفي في كثير من المواضع ونقل المضامين والأهداف في مواضع أخرى ويمكن أن نتفق على أمثلة عديدة في كتاب الهداية تدعم ما ذهبنا إليه منها على سبيل المثال لا الحصر ما نجده في موضوعي التوحيد والتوكل فيما يلي:

أولا: باب التوحيد:

عندما تعرض الغزالي للحديث عن مسألة التوحيد نجده قد قسم مراتب التوحيد إلى أربعة أقسام أو درجات، ونفس هذه الأقسام الأربعة هي ما نجد ابن قاقودة قد قسم باب التوحيد عنده إليها، بل وبنفس ترتيبها عند الإمام الغزالي وهي:

الغزالـــــــي	ابن قاقـــــودة
للتوحيد أربعة مراتب **فالمرتبة الأولى** من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا اله إلا الله وقلبه غافل عنه ومنكر له كتوحيد المنافقين. **والمرتبة الثانية** من التوحيد أن يصدق بمعنى اللفظة قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام. **والمرتبة الثالثة** من التوحيد أن يشاهد ذلك بطريقة الكشف بواسطة نور	ولذلك وجب اختلاف التوحيد حسب اختلاف عقول الناس، وتفاضل تمييزهم في التوحيد على أربعة أقسام: القسم الأول: التوحيد لله بلسانه فقط وهو أول درجاته التي يرقى إليها الصبي والجاهل بمعنى الدين. القسم الثاني: هو التوحيد لله بالقلب واللسان عن تقليد وحسن الظن بالنقل ولا علم له بصحة ذلك من جهة عقله وفهمه فهو بمنزلة اعمى يقتاد

الحق. وهو مقام المقربين، وذلك بان يرى أشياء كثيرة ولكن يراها صادرة عن الواحد القهار. والمرتبة الرابعة من التوحيد أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضا. وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان غانيا عن نفسه في توحيده بمعنى انه غنى عن رؤية نفسه والخلق.[١٣٩]	بذى بصر. القسم الثالث: من أقسام التوحيد هو توحيد الله بالقلب واللسان بعد الاستدلال عليه وصحة وجوده بطريقة النظر من غير علم بمعنى الواحد الحقيقى والواحد المجازى. القسم الرابع: هو توحيد الله عز وجل بالقلب واللسان بعد الاستدلال عليه والوقوف على حقيقة وحدانيته بطريق النظر واستعمال القياس العقلى . وهو أتمها وأعلاها.[١٤٠]

ومن هذه المقابلة بين النصين فى موضوع التوحيد لله سبحانه وتعالى يبدوا جليا إن ابن قاقودة قد ترسم خطى الغزالى، وفهم ما يرمى إليه وسار على نهجه فىَ تقسيمه التوحيد إلى نفس مراتب وأقسام التوحيد الأربعة التى ذكرها الإمام الغزالى في كتابه في الربع الرابع يضاف إلى ذلك ما نلحظه بسهولة في استخدام ابن قاقودة للعديد من المصطلحات والعبارات الإسلامية التي ذكرها الغزالى في اكثر من موضع من هذا الكتاب ، الأمر الذي يؤكد لابن قاقودة فضل النقل لا فضل الإبداع والابتكار.

ثانيا: باب التوكل:

ويبدو أن ابن فاقوده قد أجهده كثيرا استيعاب المضامين الدينية الغزيرة فيما كتبه الأمام الغزالي حول التوحيد و التوكل والذى جعلهما فى كتاب واحد ،وجعل التوحيد أساسا للتوكل كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وقال انه لا يتم التوكل على الله حق توكله إلا بعد أن يستقر التوحد فى قلب الإنسان، ويؤمن به إيمانا راسخا يؤكده اللسان و القلب معا عملا بما جاء عن الرسول الكريم فى قوله "الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ،وعلى هذا الأساس وجد ابن فاقوده إن عليه أن يفصل كل من التوحيد عن التوكل حتى يتضح الهدف منها عنده، بل و باعد بينهما فى ترتيب الأبواب فى الكتاب ،إذ بدأ بباب التوحيد و جعله فاتحه الأبواب، واستفتاحه بباب التوحيد يدل على انه لا يختلف مع الغزالى بل يسير على نهجه فالتوحيد عنده فى منزلة الأساس لما يجب بعد ذلك على الإنسان من التزام الاعتبار بالمخلوقين و طاعة الله ووجوب التوكل عليه ونفس هذه المضامين سبقه إليها الغزالى كما ذكرنا . وبعد افتتاحه بباب التوحيد جاء وافرد الباب الرابع للتوكل على الله .

هذا الباب بفصوله السبعة شرح فيه كاتبه ماهية التوكل ثم أسبابه ،و ذكر الأسباب التى يكون منها ثم أوضح كيفية تعرض التوكل على الله لأمور حياته ورزقه و معيشته ،وكيف يتعامل مع هذه الأمور كلها من منطلق التوكل الحق ، ثم ختم هذا الباب بفصل مستقل ذكر فيه مفسدات التوكل . وبمقابله هذا الباب بفصوله السبعة بما جاء فى الجزء الخاص بالتوكل عند الغزالى فى كتاب الإحياء لا يبدو لنا أن ابن فاقوده فى فكره عن التوكل اكثر من كونه قد نقل نفس المحتوى الذى أورده الغزالى فى كتابه مع تغييرات طفيفة لترقى إلى درجه الابتكار أو تجديد الفكر ،حتى انه فى بعض الأحيان كان يستعين بنفس الأمثلة التى جاءت عند الغزالى . من ذلك على سبيل المثال ما ذكره ابن فاقوده فى تفاضل التوكل من المتوكلين على الله حيث قال :وجامع القول فى التوكل أن تفاضل التوكل من المتوكلين على الله حسب تفاضل معرفتهم به ،

ويقينهم بكفايته عنهم،وقوة عنايته بما يوافقهم ، و ذلك ان الطفل في أول أمره يتوكل على ثدي أمه ،فان قوى تمييزه صرف التوكل على أمه لعلمه بشدة عنايتها به [١٤١].

وهذا المثال الذي مثل به ابن قاقودة قد سبقه إلية الإمام الغزالي عند حديثة عن أحوال التوكل و مراحله و درجاته ، و التي قسمها إلى ثلاث درجات تتدرج في الضعف و القوة ، وجعل الدرجة الثانية منها هي الأقوى فيقول عنها :" و هي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمة ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ".[١٤٢] فالدرجة الثانية عند الغزالي تقابل عند ابن قاقودة درجة قوة التميز .

في الفصل الأول من هذا الباب يبدأ ابن قاقودة في الحديث عن ماهيته التوكل ، ويعرف ذلك بقولة : "فأما ماهية التوكل فهو سكون نفس المتوكل و اعتماد قلبه على المتوكل علية أن يفعل به الأصلح و الأوفق ".[١٤٣] فإذا أمعنا النظر في هذا التعريف لماهية التوكل عند ابن قاقودة لوجدنا أنه يريد أن يقول أن حقيقة التوكل الصادق هي أن يشعر المتوكل بسكينة في نفسه ، و يقين قد أستقر في قلبه ووجدانه أن المتوكل علية ـ و هو الله سبحانه و تعالى ـ لن يفعل به إلا ما هو في صالحة في الدنيا و الآخرة لأنه قد وجه اعتماده عليه وحده .[١٤٤] فماذا قال الغزالي في مثل هذا الموضع قبل ابن قاقودة ؟ يقول الغزالي " فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحدة ".ويستمر بعد ذلك فيقول:" لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ، وقوة اليقين جميعا . إذ بهما يحصل سكون القلب و طمأنينته... فالسكون في القلب شئ و اليقين شئ آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال الله تعالى لإبراهيم علية السلام : أو لم تومن قال بلى ليطمئن قلبى ".[١٤٥]

ويبدو أن ابن قاقودة لم يكتف فقط بالنقل عن الغزالي سواء من كتاب أحياء علوم الدين أو من الرسائل ، بل نجدة ينوع مصادرة الإسلامية في هذا الباب وغيرة من أبواب هذا الكتاب على نحو ما سبق ذكره من نقله من الأحاديث القدسية و النبوية على حد سواء إلى جانب العديد من الأقوال و المأثورات العربية و الإسلامية وفي باب التوكل بصفة خاصة نجدة قد نقل أيضا عن الحارث المحاسبي .[١٤٦] فعندما يأخذ في الحديث عن صفات المتوكل الحق فيذكر العديد من السمات و الأدلة التي تدل و توحي بصدق توكله على ذات الله سبحانه و تعالى فيقول في ذلك :" إن المتوكل على الله يحمله التوكل علية على ترك التعبد لسواه ، وأن يقطع من المخلوق رجاءه ، فلا يتصنع لهم ولا يملق لهم ، ولا يتشيع معهم في غير طاعة الله ، ولا يهابه أمرهم ، ولا يروعه خلافهم لكنه يتعرى عن ثوب مننهم ، وكلفة شكرهم ، وحق مكافأتهم ، فان وعظهم لا يحافظهم ، وإن وبخهم لا يحتشم ولا يزيد لهم الباطل عندهم".[١٤٧] وفي آداب النفوس للمحاسبي يقول في ذلك :" واعلم يا أخي أنك لا تكون متوكلا على الله إلا بقطع كل مؤمل دون الله ... و المتوكل الصادق في توكله لا يجد قلبه يخضع لمخلوق ، لان قلبه مملوء بالثقة بضمان الله ".[١٤٨] و يقول أيضا في المتوكل على الله :" أنه يؤثر الصدق حيث يضره ، لأنه لم يصح لمن توكل علية أن يخاف غيرة ، وكذلك إذا أمر بالمعروف و نهى عن المنكر لم يخش إلا الله ".[١٤٩] ثم يقول :" إذا سكن قلبك إلى الله لم تخف غيره ".[١٥٠] و يقول ابن قاقودة " أن المتوكل على الله يحمله توكله على فراغ بالة من أمور الدنيا ".[١٥١] ثم يعود مرة أخرى ليقول :" و المتوكل على الله قوى الثقة بالله يرزقه ما شاء ، متى شاء ، ومن حيث شاء ".[١٥٢]

فإن كان أبن قاقودة - على نحو ما سبق أن ذكرنا - قد تفهم بحق التراث العربي و الإسلامي ، ووقف على أحاديث الرسول صلى الله علية و سلم ،

وعرف تراث صحابته و التابعين ، وظهر نتاج ذلك في أبواب و فصول كتابة خاصة باب التوبة و التوكل . فانه قد عرف كذلك من خلال تلك المصادر الإسلامية أن السعي إلى الرزق و التكسب لا يتنافى مع ضرورة التوكل على الله توكلا نابعا من القلب . و انه في سبيل إيصال تلك المفاهيم الدينية و الأخلاقية قد سار على المنهج الذي أعلن عنة الإمام الغزالى في كتابة الإحياء. وكما كان يرى الغزالى أن السعي إلى الكسب ، و الاجتهاد في طلب الرزق الحلال. لا يتعارض على الإطلاق مع التوكل كما قد يتوهم البعض . إذ من الخطأ كم يذكر الغزالى أن "يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، و السقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع" .[١٥٣] و يؤكد الغزالى هذه المقولة مرة أخرى ليتدبر الناس ويعرفون معنى التوكل الحق بقولة:" فانك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق في الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك و يوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله ، وكذا لو لم تزرع الأرض و طمعت أن يخلق الله نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع فكل ذلك جنون "[١٥٤] نقول إذا أنة كما كان الغزالى يرى هذا الرأى في التوكل فان ابن قاقودة قد نقل عنة نفس هذه الأفكار فيما يتعلق بالأسباب في التوكل مما يجعلنا نطمئن إلى أنة فعلا قد ترسم نفس الخطى التي كان ينتهجها الغزالى في إحياء علوم الدين بصفة عامة ، لأنه كان يهتم دائما بمخاطبة القلوب و يوجه كلامه إلى عوام الناس أكثر من مخاطبته العلماء و المثقفين منهم ، وهذا ما جعل بعض الباحثين يقول أن الغزالى يظهر كرجل عالم بالأخلاق عظيم . قابض على زمام موضوعة تماما ، دقيق إلى الغاية ... ولذلك كان علم الأخلاق عند الغزالى هو علم نفس خلقى على وجه الخصوص .[١٥٥] ولم يكن الغزالى كما يبدو في كتاب الهداية هو وحدة الذي أعتمد علية المؤلف ، بل ظهر الكتاب وهو ينطق بمؤلفات و أقوال كوكبة كبيرة من العلماء و المسلمين و أهل الفكر و الفطنة. وان هؤلاء جميعا قد تربوا على القران

الكريم[١٥٦] و سنة نبيه العظيم ، ونهلوا من تلك الينابيع الأصيلة للفكر الإسلامي ، فلا عجب أن يكون لهم الفضل الكبير على ابن فاقودة اليهودى وعلى كتابة الذي سلك فيه مسلك المسلمين .

هوامش المبحث الثالث

١- يكاد الباحثون في حياة بحيا بن فاقودة وكتابه هذا يجمعون على أن اللغة العربية بشقيها اللغوي والأدبي كانت ركيزة أساسية ومصدرا لا غنى عنه له عند تدوين كتابه.

انظر في ذلك :

أ- د. إبراهيم موسى هنداوي : الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص ١٥٠. مكتبة الأنجلو ١٩٦٣.

ب- د. علي سامي النشار: الفلسفة اليهودية وتأثرها بالفكر الإسلامي. منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧١.

٢- بحيا بن يوسف بن فاقودة: الهداية إلى فرائض القلوب. النسخة العربية. نشره إبراهيم بن سالم بن يهودا. ص ٢٦ طبعة ليدن عام ١٩٠٧.

ويتكرر ذلك كثيرا في صفحات ٣٧،٤٠، ٤٢ على سبيل المثال لا الحصر.

٣- المصدر السابق ص ١٧٨.

٤- نفس المصدر ص ١٧٩.

وانظر أيضا صفحات : ٢٢٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣.

٥- الحقيقة الواضحة فيما يتعلق بالعلاقة الفكرية لليهود ورؤيتهم للفكر العربي الناهض في فترة العصر الوسيط أن هؤلاء اليهود كان شاغلهم الشاغل دائما هو رغبتهم الملحة أن يلحقوا بهذا الفكر المتنوع حتى يستطيعوا أن يثبتوا أنهم ليسوا أقل مقدرة من مفكري العرب رأينا ذلك في مطلع القرن العاشر الميلادي في الأندلس عندما قام دوناش بن لبراط في تطبيق الأوزان العربية في الشعر واستخدامها في الأشعار العبرية الموزونة وحتى بعد تقدم وتطور الشعر العبري وجدناهم أيضا يدخلون إلى فن شعري له قواعده

ونظمه الخاصة ونعني به فن الموشحات الذي لم تعرفه العبرية إلا بعد أن أخذه اليهود بنفس فنيته وطبقوه في أشعارهم.

وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى :

د. عبد الرازق قنديل : الأدب العبري في الأندلس جـ١ الشعر. القاهرة ١٩٩٠.

٦- سورة البقرة. آية ١٥٣.

٧- سورة البقرة. آية ١٧٨.

٨- سورة البقرة. آية ١٧٩.

٩- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٨٩ - ٩٠.

١٠- انظر ترجمة سعديا الفيومي العربية لأسفار موسى الخمسة. طبعة ديرنبورج. باريس ١٨٩٩م.

١١- الهداية إلى فرائض القلوب : باب الإخلاص. ص٢٣٧.

ويلاحظ أيضاً أنه قد استخدم بعض المفردات التي لم تعرفها اليهودية قبل تعايشهم في المجتمعات العربية مثل ألفاظ: الوزير - صاحب الشرطة ، العامل...الخ ، وأن خلفاء المسلمين في الأندلس قد منحوا بعض اليهود هناك بعض هذه الألقاب فكان هناك الوزير حسداي بن شفروط ، الذي كان يشغل منصب الوزير للخليفة عبد الرحمن الناصر. والوزير الشاعر شموئيل هناجيد وزير الملك حابوس بن ماكسن الصنهاجي وابنه باديس في المملكة الزيرية الصنهاجية في غرناطة في عصر ملوك الطوائف ، كما كان الشاعر والناقد اليهودي موسى بن عزرا يلقب أيضاً بصاحب الشرطة.

١٢- انظر في مثل ذلك صفحات ٢٥٥- ٢٥٦ من نفس الباب والتي تؤكد مدى إلمامه بالفكر العربي الإسلامي ، ومدى علمه ودرايته بالعديد من العلوم العربية المختلفة.

١٣- انظر :

رسالة في إصلاح الأخلاق لسليمان بن جبيرول. وقد نشرت هذه الرسالة باللغة العربية بحروف عربية وليس لدينا مصادر مؤكدة توضح هل كتبها ابن جبيرول بهذه الصورة أم بأبجدية عبرية على عادة يهود هذا العصر. وقد ترجمت الرسالة إلى اللغة الإنجليزية وتم نشر الترجمة والنص العربي معها عام ١٩٠٥ في نيويورك.

ويلاحظ أن ابن جبيرول قد أكثر فيها من الاستشهاد بأبيات الشعر العربي غير أن الواضح أن تلك الأبيات تحتاج إلى مراجعة دقيقة وضبط لألفاظها وتخريج لها فكثير من هذه الأبيات قد نقلت وبها أخطاء واضحة. كما أن ناشر الرسالة يبدو أنه أراد أن يضبط الأبيات الشعرية بالحركات فأخطأ في ذلك خطأ فاحشا تدل على تواضع معرفته باللغة والنحو العربي ، ولو تركها دون ضبط ربما كان أفضل كثيراً.

١٤- الهداية إلى فرائض القلوب. باب الإخلاص ص ٢٣٦.

١٥- ديوان أبي الطيب المتنبي. شرح عبد الرحمن البرقوقي. جـ٢ ص ٦٤. دار الكتاب العربي بالقاهرة.

١٦- الهداية ص ٢٤٩.

١٧- الرمض والرمضاء : شدة الحر. والرمض: شدة وقع الشمس على الرمال ، وشدة حر الحجارة من حر الشمس. والشاعر العربي يعني هنا أن المستجير بعمرو عندما تحل به نازلة أو كارثة فمثله مثل الذي يفر من حر الشمس الشديد طالباً النجاة في لهيب النار المشتعل. ولكن ابن فاقودة قد قلب هنا المعنى الذي يقصده الشاعر.

انظر:

لسان العرب لابن منظور. مادة رمض. جـ١ . دار لسان العرب. بيروت.

١٨- أخرجه البخاري في صحيحه جـ٢ ص ١٠٥ في باب التواضع.
انظر أيضاً : الأحاديث القدسية جـ١ ص ٨١.
١٩- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٢٦٥ باب التواضع.
٢٠- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٧٤. باب التواضع.
٢١- سورة هود. آية ١١٤.
٢٢- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٢٩٤ باب التوبة.
وتتردد في صفحات الكتاب الكثير من مثل تلك العبارات والألفاظ العربية الإسلامية من ذلك قوله:" رد المظالم واجتناب المحارم " ص ٢٩١..
وقوله أيضاً:" والاستغفار عن المعاصي " ص ٢٩١.
٢٣- لعل من المتفق عليه في الفكر الإسلامي أن مصطلح أسماء الله الحسنى قد ورد لأول مرة في النص القرآني الكريم. ثم جاءت السنة المحمدية مرددة نفس هذا التعبير أيضاً فيما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر " . وقد فصّل العلماء وأفاضوا كثيراً فيما يتعلق بأسماء الله الحسنى حتى وصلوا بعددها إلى أربعة آلاف اسم ، وإن كان علم هذا العدد ومعرفته عند الله وحده. وأن الأصح أن لله اسم واحد فقط كما يذكر البعض هو أن لله اسم واحد فقط وهو " الله " وما عداه من الأسماء لا تخرج عن كونها صفات أنزلت منزلة الأسماء. وقد أشار بعض علماء اليهود المحدثين في تحقيقه وتعليقه على كتاب الأمانات والمعتقدات لسعديا الفيومي إلى رفضه لمثل تلك الصفات المتعددة إذ لا يجوز في رأيه ذكر الصفات والألقاب مع ذكر الله سبحانه وتعالى لأنه واحد أحد.

وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى:

أ- التفاسير الإسلامية المتعددة ومنها تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦٨ وما بعدها.

ب- أسماء الله الحسنى لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي. جـ١ ص ٨ وما بعدها. دار أخبار اليوم. ١٩٩٣.

جـ- יוסף קאפח : ספר הנבחר באמונות ובדעות לרבנו סעדיה בן יוסף פיומי. יוצא לאור ע"י המכון למחקר ולהוצאת ספרים. סורא. ירושלייים. תש"ל.

د- יהודה גור : מלון עמ' 413.

٢٤- الأعراف. آية ١٨٠.

٢٥- الإسراء. آية ١١٠.

٢٦- طه. آية ٨.

٢٧- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٣١٤. باب المحاسبة.

٢٨- انظر مقدمة سفروني لترجمة كتاب " חובות הלבבות " ليهودا تبون.

٢٩- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٣٦. باب الإخلاص.

٣٠- يذكر المؤرخون للأدب العبري في العصر الوسيط ، والفكر اليهودي بصفة عامة أن أخذ اليهود من المصادر العربية والإسلامية أدبية كانت أو لغوية ودينية كان من الأمور التي لا يتحرج منها علماء اليهود ، بل إنهم كانوا يصفون المتحرج منهم بقلة علمه وفهمه للأمور على نحو ما نرى في مقدمة مروان بن جناح لكتابه " التنقيح " بجزئيه اللمع والأصول. وفي دواوين الشعر العبري الأندلسي العديد من الأبيات الشعرية التي نقلها اليهود إلى أشعارهم

مترجمة إلى العبرية على نحو ما نجد عند يهودا اللاوي وموسى بن عزرا وغيرهم.

انظر في ذلك:

1- השירה העברית בספרד ובפרובנס. מאת חיים שירמן.

٢- مروان بن جناح : مقدمة كتاب اللمع.

٣١- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٣٢٠ باب المحاسبة.

٣٢- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٢٦٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصة الوعظية قد وردت في مخطوطة فرانكفورت

ولم ترد في مخطوطة باريس. وقد أشار إلى ذلك ناشر الطبعة العربية من هذا الكتاب. ولعل ذلك يبين أن هناك اختلافا بين المخطوطات وبعضها.

٣٣- نود أن نوضح هنا إلى أننا في تتبعنا لما ورد من الأمثال أو المأثورات العربية في ثنايا كتاب الهداية لم نذكر إلا القليل منها فقط ، ولم نتعرض من قريب أو بعيد للكثير الذي يحتويه الكتاب ، فهو زاخر بعشرات أو يزيد من تلك الأمثال الوعظية والأخلاقية بداية من المقدمة التي كتبها ابن فاقودة إلى آخر صفحات الكتاب ومما ذكره في مقدمته من تلك الأمثال قوله في ص ٢٣ : " إن من التوقي ترك الإفراط في التوقي ". وهذا أيضا مأثور عربي إسلامي.

٣٤- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٦٥- ٢٦٦.

٣٥- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. جـ٣. ص ٣٥٢. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابلي الحلبي ١٩٥٧.

٣٦- المصدر السابق. جـ٣. ص ٣٢٩.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نقل ابن قاقودة عن الإمام الغزالي من الأمور الواضحة في كتاب الهداية ، ويتكرر ذلك عنده كثيراً. ولنا عود إلى هذه المسألة تفصيلاً فيما بعد.

٣٧- انظر باب المحاسبة في كتاب الهداية ص ٣٤١.

٣٨- سورة الكهف. آية ٤٥.

٣٩- سورة الحديد. آية ٢٠.

٤٠- سورة فاطر. آية ٥.

٤١- رواه مسلم والبخاري.

٤٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

٤٣- رواه ابن ماجة وغيره وهو حديث حسن.

وهناك رواية أخرى لهذا الحديث أوردها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ص ٤٦٩ ونصها:" قال الحسن بن الربيع الكندي بإسناد له: قال رجل للنبي (ص) دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس. قال: ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ".

٤٤- رواه أبو يعلي في الترغيب والترهيب. ولقد ورد هذا الحديث في " الجامع الصغير " بصورة أخرى حيث جاء ما نصه " إذا رأيتم الرجل قد أعطي تزهداً في الدنيا. وقلة منطق فاقتربوا منه. فإنه يلقى الحكمة ". رواه أبو نعيم وابن ماجة في حلية الأولياء. والبيهقي في شعب الإيمان.

٤٥- رواه أحمد والبزاز والطبراني وابن حبان والحاكم.

٤٦- ديوان أبي نواس. الحسن بن هانئ. ص ١٢١. حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ١٩٥٣.

وقد وردت بعض هذه الأبيات في العقد الفريد جـ٣ ص ١١٠ باختلاف في الترتيب مع رواية يقول فيها:" وقال هارون الرشيد. لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك. وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ∴ له عن عدو في ثياب صديق

وما الناس إلا هالك وابن هالك ∴ وذو نسب في الهالكين عريق

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة رواية أخرى تنسب للمأمون نصها:" قال المأمون: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصف نفسها صفة أبي نواس في هذا البيت:

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت ∴ له عن عدو في ثياب صديق.

٤٧- د. مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٢٢٣. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة.

٤٨- أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ١١٠. تحقيق محمد سعيد العريان. دار الفكر.

٤٩- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٩٤. باب التوبة.

انظر أيضاً من هذه المأثورات العديدة على سبيل المثال لا الحصر قوله:

" وقد قيل: إن الأيام صحائف فخلفوا فيها ما تحبون أن ينتشر عنكم " ص ٣٢٢ باب المحاسبة. وقوله أيضاً : " ولا تعطل عمل يومك لغدك فينقل عليك توفيته إن وصلت إلى غيره " ص ٣٢٦.

٥٠- انظر في ذلك على سبيل المثال صفحات :

٢٩٤- ٣٢٢- ٣٣٠- ٣٣١- ٣٣٣- ٣٤١.

وغير ذلك كثير من تلك المواضع التي تتكرر في كثير من صفحات الكتاب إن لم تكن فيها جميعها.

٥١- كتب بعض الباحثين المحدثين العديد من الأبحاث التي تدور حول مدى تأثر شعراء اليهود في الأندلس بما جاء في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة. وكان من أهم هؤلاء الباحثين أهارون ميرسقي ويمكن الرجوع إليه في ذلك. انظر:

אהרון מירסקי : שירי הספרדים משער הבחינה של ספר חובות הלבבות לר' בחיי אבן פקודה. תרביץ. כרך ג. עמ' 315. הוצאת ספרים. תשמ"א.

٥٢- جماعة إخوان الصفاء :

جمعية من العلماء والمفكرين أنشئت بمدينة البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي ٣٧٣هـ - ٩٨٣م) اتسمت بصبغتها الدينية السياسية. يقال أن من أسباب قيامها ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، فتاقت نفوسهم إلى التجديد في النواحي الأخلاقية والروحية والسياسية. كما يذكر أيضاً أنه كانت لها نزعات شيعية متطرفة. وأعضاء هذه الجماعة كانوا يطلقون على أنفسهم " إخوان الصفاء ".

ويذكرُ مترجم كتاب قصة الحضارة في هامشه أن اسمهم بالكامل هو : " إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد."

ومن معتقدات هذه الجماعة أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردي. ولقد أصدرت هذه الجماعة سلسلة من الرسائل بلغت إحدى وخمسين رسالة رتبت ترتيبا جامعا لشتات العلوم متمشيا مع الأغراض التي قامت من أجلها الجماعة. ويذكر الباحثون أنها شديدة الصلة بالأفلاطونية الحديثة ، وكان لها أثر عميق في الفلسفة اليهودية

والإسلامية يظهر واضحا في كتابات الفيلسوف ابن رشد ، والشاعر اليهودي سليمان بن جبيرول ويهودا اللاوي.

انظر حول ذلك :

١- ول ديورانت : قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. جـ١٣. ص ٢٠٦ وما بعدها.

٢- دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٥٢. طبعة دار الشعب.

٥٣- د. سفروني : مقدمة كتاب " חובות הלבבות " ترجمة يهودا بن تبون.

٥٤- الهداية إلى فرائض القلوب. ترجمة يهودا بن تبون ص ١٣ من مقدمة الكتاب. نشرة د. سفروني.

٥٥- المصدر السابق. ص ٣٧. الباب الأول.

وانظر أيضا في ذلك صفحات : ٣٩- ٤٠- ٤٣.

٥٦- د. عمر الدسوقي : إخوان الصفاء. دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ١٧٠ وما بعدها خاصة ما ذكره عن نظرية الفيض ومراتب الوجود عند إخوان الصفاء حيث يستدلون بالواحد الحقيقي على وجود الله ووحدانيته.

٥٧- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠. طبعة ليدن . ويجب أن ننبه هنا إلى اختلاف نسخ مخطوطات الكتاب في هذا الفصل وكذلك في الفصل الذي يليه. إذ تختلف النسخة المأخوذة عن مخطوطة إكسفورد عن النسخة المأخوذة عن مخطوطة باريس. ولقد أشار إلى هذا الاختلاف بين المخطوطتين كل من ابراهام بن يهودا في طبعة ليدن وقافح في نشرته العربية والعبرية. وأتيا بنص المخطوطتين كل على حدة. ويمكن الرجوع إليهما لمن شاء.

٥٨- د. جبور عبد النور : إخوان الصفاء. ص ٣٥. العدد السابع من سلسلة نوابغ الفكر. دار المعارف. القاهرة.

٥٩- رسائل إخوان الصفاء جـ١ ص ٢٩٠ نقلاً عن الدكتور عمر الدسوقي ص ١٧٦- ١٧٧ .

60- שמחה בונם : עמודי המחשבה הישראלית. חלק שני. עמ' 121-124. ירושלים. תשי"ד.

٦١- انظر الهداية إلى فرائض القلوب. باب المحاسبة. ص ٣٣٨.

٦٢- رسائل إخوان الصفاء جـ٤ ص ١٠٩. نقلاً عن الدكتور عمر الدسوقي. إخوان الصفاء ص ٩٧. دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٦٣- الهداية إلى فرائض القلوب ص ١٠٤- ١٠٥. الباب الثاني. الفصل الرابع.

٦٤- انظر ملاحظة قافح رقم ٩٧ ص ١٠٤ والتي يحيل فيها القارئ إلى الرسالة رقم ١٢ جـ٣ من رسائل إخوان الصفاء.

٦٥- انظر الفصل الخامس من هذا الباب ص ١٠٧ في قوله:" إلا أن أقربها منا وأوضحها عندنا أثر الحكمة الظاهرة في نوع الإنسان الذي هو العالم الصغير ".

٦٦- مقدمة د. سفروني ص ٢٧ لكتاب الهداية إلى فرائض القلوب.

٦٧- د. علي سامي النشار : الفلسفة اليهودية وتأثرها بالفكر الإسلامي ص ٢٧. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٧١م.

68- ישראל צינברג : תולדות ספרות ישראל. חלק I . עמ' 105. הוצאת יוסף שרברק בע"מ. תל-אביב .

٦٩- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٤٩- ٥٠.

٧٠- أصحاب الاثنين :

وهم الثنوية المانوية ، ويقال عنهم المنانية. ومن رؤساء الثنوية عبد الكريم ابن أبي العوجاء ، والنعمان الثنوي ، وأبا بكر شاكر الريصاني... وعبد الله بن المقفع ، وبشار الأعمى الشاعر (هو بشار بن برد الشاعر العباسي)... وقد حكى عن كل واحد منهم مذاهب يخالف

بها صاحبه في الفروع ، وإن كانوا يتفقون في التثنية ، وهي أن العالم مركب من شيئين نور وظلمة وهما قديمان لم يزالا ولا يزالان. وأحالوا حدوث شئ من الصنعة والتركيب إلا من أصل قديم. وقالوا: لم نر الإحساسين قويين دراكين سمعيين بصريين ، وهما مختلفان في النفس والصورة ، ومتضادان في العقل والتدبير. فجوار النور فاضل حسن مختص بالصفاء والنقاء ، وطيب الريح ، وحسن المنظر ، ونفسه خيرة كريمة نقاعة. وكل خير وصلاح سرق من فعلها .... وجوهر الظلمة كل ضد ذلك من النقص... وقبح المنظر ، ونفسها نفس شريرة بخيلة.. وكل شر وضرر وغم وفساد فمنها يكون.

انظر في ذلك :

القاضي أبو الحسن عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل جـ٥ ص ٩- ١٠. تحقيق محمود محمد الخضيري. مراجعة د. إبراهيم مدكور. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ١٩٨٥.

٧١- أصحاب الثلاثة :

وهم جميع النصارى إلا نفر منهم يسير. وهم يقولون إن الخالق الإله جوهر واحد ثلاثة أقانيم وإن أحد هذه الأقانيم أب ، والآخر ابن ، والثالث روح القدس. وإن الابن هو الكلمة ، والروح هي الحياة ، والأب هو القديم الحي المتكلم ، وإن هذه الأقانيم الثلاثة متفقة في الجوهرية ، مختلفة في الأقنومية ، وإن الابن لم يزل مولوداً من الأب ، والأب والداً للابن ، ولم تزل الروح فائضة من الأب والابن ، وليس كون الابن ابناً للأب على جهة النسل لكن لتولد الكلمة من العقل ، وحرّ النار من النار ، وضياء الشمس من الشمس.

انظر:

القاضي عبد الجبار: المصدر السابق ص ٨١ جـ٥ والهداية باب التوحيد ص ٨٩.

٧٢- الهداية إلى فرائض القلوب. الباب الخامس ص ٢٣٤.

٧٣- الجبر:

هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى. وعليه فالإنسان.... لا يقدر على شئ ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أعماله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار. وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجماعات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً وقد قال جهم بن صفوان زعيم الجبرية إنه إذ أثبت الجبر ، فالتكليف أيضاً كان جبراً وقد نقد فقيه الأندلس ابن حزم الظاهري هذا المذهب بقوله: لو صح المذهب الجبري لصح نسبة الظلم إلى الله تعالى ، حيث يخلق أفعال عباده ثم يعاقبهم عليها ، كيف وقد أسقط التكليف عن عباده فيما لا يقدرون عليه وجعل نطاق التكليف فيما هو في وسع المكلف. قال تعالى:" لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " (سورة البقرة. آية ٢٨٦).

ولمزيد من التفصيل في ذلك يمكن الرجوع إلى :

١- الشهرستاني : الملل والنحل. القسم الأول ص ٧٩- ٨٠.

٢- ابن حزم : الفصل في الملل والنحل جـ٣ . ص ٢٤.

٧٤- الهداية إلى فرائض القلوب. باب الإخلاص. ص ٢٥٠.

٧٥- المصدر السابق. ص ٢٥١.

٧٦- د. علي سامي النشار. المصدر السابق ص ٢٥.

٧٧- نفس المصدر ص ٢٧.

٧٨- لفظ القلب ومترادفاته من الألفاظ التي وردت في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم. وقد وصف القرآن هذا القلب ووصف صاحبه في أحواله المختلفة ، منها السلامة له ، أو الغفلة أو الهداية

والإيمان. من ذلك قوله تعالى:" من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب سليم " (سورة ق. آية ٣٣) وقوله تعالى:" ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه " (الكهف. آية ٢٨). وقول الحق تبارك وتعالى:" ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم " (التغابن. آية ١١). وقال تعالى في سورة البقرة " قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " (آية ٢٦٠). وفي سورة الحج يقول الله تعالى:" فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " (آية ٤٦). وغير ذلك كثير من الآيات التي توضح أهمية هذه النطفة الربانية لدى الإنسان.

٧٩- من الثابت تاريخياً أن المفكرين المسلمين قد سبقوا ابن فاقودة في الاهتمام بالقلب كوعاء إيماني لا مثيل له ، يحتفظ المسلم فيه بإيمانه مصداقاً لقول الرسول الكريم " الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ". ومن هذا المنطلق فقد تعددت وكثرت المؤلفات التي تدور كلها حول القلب وأفعاله ومتطلباته ، فقد كتب الحارث المحاسبي كتاباً جعل عنوانه" دواء القلوب" وكتب أبو طالب المكي كتاب " قوت القلوب " ، كما تحدث الحسن البصري عن " علم القلوب ". وهناك الكثير من هذه المؤلفات مثل: جلاء القلوب ، ضياء القلوب وغيرها.

انظر أيضاً : أحمد بن عبد ربه. العقد الفريد جـ١ ص ١٥٠- ١٥٥.

٨٠- Encyclopedia Judaica (Bahia Ibn Pakoda)

81- יוסף קאפח. שם. עמ' 54.

وانظر كتاب الهداية إلى فرائض القلوب. النسخة العربية ص ٤٥.

٨٢- انظر هامش ص٥٤ رقم ٨٧ من نفس المصدر السابق ليوسف قافح.

٨٣- المصدر السابق ص ٥٤. وص ٤٥ من النسخة العربية.

٨٤- انظر هامش رقم ٨٨ من ص ٥٤ من المصدر السابق.

٨٥- فيما يتعلق بمسألة التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة فإن الباحثين في مجال الأدب المقارن يتوسعون في موضوع تأثير أدب في آخر ، ولا يقفون عند مجرد ضرورة الاطلاع على هذا الأدب أو دراسته وإنما يقولون أن التأثير من الممكن أن يحدث دون النقل المباشر أو عن الغير وإنما يمكن أن يتم ذلك عن طريق وسائل الاتصال المختلفة سمعية وبصرية وغيرها. إلا أن ما يذهبون إليه قد يتحقق في العصر الحديث مع توافر وسائل الاتصال المتعددة ولا ينسحب ذلك على عصر ابن فاقودة ، ولذلك فتأثر ابن فاقودة بالفكر العربي كان نتيجة البيئة والاطلاع.

٨٦- في نسخة أكسفورد لمخطوط كتاب الهداية نجد أن الناسخ قد أتى بكلمة " والتخلي " بدلاً من كلمة " والتبري ". الموجودة في النسخة العربية التي نقلها عنها.

انظر :

هامش ص ٢٧٥ من النسخة العربية للكتاب. طبعة ليدن ١٩٠٧- ١٩١٢م.

٨٧- الهداية إلى فرائض القلوب. الطبعة العربية ليدن ١٩٠٧. باب التواضع ص ٢٧٥- ٢٧٦.

٨٨- الهداية إلى فرائض القلوب. باب التواضع ص ٢٧٦. الطبعة العربية. ليدن ١٩٠٧.

٨٩- الأحاديث القدسية جـ١ ص ٢٧٠. الطبعة الرابعة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٩٨٣م. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه توجد روايتان غير هذه الرواية لهذا الحديث في نفس هذا المصدر أخرجهما ابن ماجة. الرواية الأولى منهما عن أبي هريرة رضي الله عنه بنفس الألفاظ المذكورة مع تغيير في اللفظتين الأخيرتين

حيث قال:" من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ". وواضح أن المعنى واحد: أما الرواية الثانية وهي لابن ماجة أيضاً فهي عن ابن عباس مع تغيير كلمة" قذفته في النار " بكلمة " ألقيته في النار " فقال:" فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار" ويتضح من ذلك أن مضمون معنى الحديث في الروايات الثلاث واحد وهو ما استعان به ابن فاقودة في هذا الموضع من كتابه.

ولقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه رواية أخرى في باب تحريم الكبر في الجزء العاشر ص ٥٣ بسنده إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العزة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته ".

٩٠- شرح النووي لمسلم جـ١٠ ص ٢٣. نقلاً عن الأحاديث القدسية ص٢٧١.

٩١- د. سفروني : الهداية إلى فرائض القلوب. ترجمة ابن تبون ص ٤١٧. والمعنى الكبرياء رداء الله ، ومن أراد أن يشاركه رداءه فكأنما أراد أن يتشبه به.

٩٢- دافيد قافح : واجبات القلوب. ص ٢٩٨.

٩٣- انظر هامش رقم ١٢ ص ٢٨٩ من ترجمة دافيد قافح.

ويمكن القول أن ما ذكره دافيد قافح في تعليقه على ترجمة ابن تبون الذي قال في ترجمته لهذه العبارة " ומי שרוצה להכנס עליו במעטהו יהדפנו" وأن هذه الترجمة غير دقيقة فإنه يبدو أنه محق في ملاحظته هذه ، يدل على ذلك أن د. سفروني قد ذكر هو الآخر في هامشه أن " כאלו רצה להדמות לו " غير موجودة في كل النسخ ووجد بدلاً منها كلمة " יהדפנו " بمعنى: يصده أو يدفعه وهي من الفعل العبري הדף الذي يعني دفع ، صد ، ذاد عن. وهذا المعنى بعيد عما ورد في نص الحديث القدسي أو معناه ، وأن العبارة

السابقة تبدو أقرب إلى معنى هذا الحديث القدسي منها. ومن ترجمة دافيد قافح أيضا حيث أنها تفيد أن من ينازع الله رداءه- أي كبرياءه- فكأنما يتشبه به في كبريائه وعظمته. وهذا لا يجوز في ذات الله سبحانه وتعالى طبقاً لما هو مفهوم من شرح الإمام النووي على حديث مسلم المشار إليه سابقاً.

٩٤- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٩٦.

٩٥- نفس المصدر ص ٢٧٢.

٩٦- كان القرآن الكريم يركز باستمرار على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذلك ورد في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم فقد جاء قوله تعالى:" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ". (آل عمران. آية ١٠٤) ووصف الله الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأنهم خير الناس فقال تعالى في نفس السورة. آية ١١٠ " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ".

انظر أيضا: الآية ١١٤ من نفس السورة. التوبة آية ٧١.

الأعراف آية ١٥٧.

وفي جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور التي تعتبر من الفرائض قوله تعالى في سورة لقمان " يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر " الآية ١٧.

٩٧- لقد عودنا ابن فاقودة أنه عندما يريد أن يستعين أو ينقل بعض التراث الإسلامي إلى كتابه أن يقدم لذلك بقوله: وقال بعض الصالحين ، أو وقيل...الخ ، غير أنه هنا قد خالف منهجه ولم يذكر

شيئاً من ذلك الأمر الذي قد يوحي بأن تلك الأقوال من تأليفه وليس ذلك صحيحاً.

٩٨- الهداية إلى فرائض القلوب. باب المحاسبة. ص ٣٣٠- ٣٣١.

٩٩- المصدر السابق ص ٣٣١.

١٠٠- تضمنت سور القرآن الكريم الكثير من الآيات التي توضح الحلال والحرام في القول والعمل ، وما يحل للإنسان وما يحرم عليه ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٧٣ :" إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم "

انظر: الأنفال آية ٦٩ ، النحل آية ١١٦.

١٠١- انظر باب التوبة ص ٢٨٩.

١٠٢- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢٩٠ باب التوبة.

١٠٣- رواه النسائي والترمذي والحاكم وصححه من حديث الحسن بن علي. انظر: هامش كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. جـ٢ ص ١٦

١٠٤- متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

انظر: أ- إحياء علوم الدين للغزالي جـ٢ ص ٩٩.

ب- رياض الصالحين. باب الورع.

١٠٥- من المعروف أن كتاب الهداية قد حظي بالاهتمام والدراسة من كثير من الباحثين ولكد هؤلاء في أبحاثهم مسالة تأثره بالفكر الإسلامي وقد تضمنت المقدمة الألمانية للنسخة العربية لكتاب ابن فاقودة العديد من الإشارات التي تضمنت بعض النصوص الإسلامية. انظر: المقدمة الألمانية ص ٨٩ وما بعدها.

١٠٦- الهداية إلى فرائض القلوب. باب التوبة ص ٢٩٦.

١٠٧- انظر:

هامش إحياء علوم الدين للغزالي ص ١٥ جـ٤.

وتجدر الإشارة هنا أن هناك روايات أخرى لهذا الحديث منها قوله عليه السلام " إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له " رواه الطبراني.

وقد ذكر القشيري في رسالته رواية أخرى لهذا الحديث في باب التوبة بسند ينتهي إلى أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإن أحب الله عبداً لم يضره ذنب " ثم تلا " إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ". انظر:

الرسالة القشيرية في علم التصوف. باب التوبة ص ١٦٣. تحقيق ودراسة هاني الحاج. المكتبة التوفيقية. بدون تاريخ.

١٠٨- في الهامش الثالث من ص ١٦٤ من الرسالة القشيرية في باب التوبة ذكر المحقق ما قاله ابن القيم بشأن التوبة حيث قال :" فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما قبلها وغير ذلك.

١٠٩- صحيح مسلم جـ٢ ص ٤٩١. باب سقوط الذنوب بالاستغفار. مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. بدون تاريخ.

١١٠- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٢٩٤. باب التوبة.

١١١- رواه الطبراني في معجمه.

١١٢- الهداية إلى فرائض القلوب. باب التوبة. ص ٢٩٦- ٢٩٧. الفصل الثامن. وقد أشار كاتب المقدمة الألمانية لكتاب الهداية إلى العديد من الأحاديث النبوية التي تدور كلها حول التنبيه إلى أن الرياء والعجب والكبرياء أشد على الإنسان من ارتكاب الذنوب نفسها. انظر. ص ٨٤- ٨٥ من هذه المقدمة.

١١٣- رواه ابن ماجة والحاكم من حديث شداد بن أوس. وقالا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء. قال الحاكم صحيح الإسناد.

١١٤- رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان. ورواه الطبراني. ويعرف الحارث المحاسبي المرائي بقوله:" وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره ، طلب الثناء والمحمدة ، والرفعة والتكرمة عند الناس وإحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه الويل والثبور في الدنيا والآخرة " انظر: آداب النفوس لأبي عبد الله حارث بن أسد المحاسبي. ص ٩٩. دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الجيل. بيروت. ١٩٨٤.

١١٥- انظر:
الرسالة القشيرية. ص ٢١٧. تحقيق ودراسة هاني الحاج. المكتبة التوفيقية وقد خرّج المحقق الحديث في هامشه بقوله:" أخرجه مسلم في الإيمان- باب تحريم الكبر ، والترمذي في البر والصلة. باب ما جاء في الكبر ، وابن ماجة في الزهد. باب البراءة من الكبر."

١١٦- الرسالة القشيرية في علم التصوف. ص ٢٣٨.

١١٧- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ١٧٨. باب التوكل.

١١٨- سورة المائدة. آية ٢٢.
انظر أيضا في التوكل:
سورة آل عمران: الآيات ١٢٢ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤.
سورة الطلاق. آية ٣.
سورة إبراهيم. آية ١١.

١١٩- رواه الترمذي وقال حديث حسن. انظر رياض الصالحين ص ٥٢ وهناك روايات أخرى لهذا الحديث منها " قال صلى الله عليه وسلم: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً ، ولزالت بدعائكم الجبال "
رواه أحمد والطيالسي في مسنديهما. والترمذي وابن ماجة عن

عمر مرفوعاً.

انظر هامش رسائل الغزالي. ص ١١٢. ضبط وتحقيق: رياض مصطفى العبد الله. دار الحكمة. دمشق. بدون تاريخ.

١٢٠- الرسالة القشيرية. ص ٢٣٧.

وقد ذكر المحقق في هامش الصفحة تخريجاً للحديث عن البخاري في باب من يتوكل على الله فهو حسبه ، ومسلم في باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

١٢١- الهداية. ص ١٩٠.

١٢٢- انظر:

هامش رسائل الغزالي ص ١١٢.

وقد نقل ابن قاقودة ذلك حين قال:" كما أن على صاحب الأرض أن يحرثها وينقيها من الشوك ويزرعها ، ويسقيها إن أمكنه الماء ويتوكل على الله جل وعز أن ينميها ويصونها من الآفات وتزكو غلته ويبارك الله فيها. وليس يجب عليه أن يترك الأرض دون الفلاحة والزراعة اتكالاً منه على قدرة الله أن تنبت الأرض دون زراعة " كتاب الهداية. باب التوكل ص ١٩٩.

١٢٣- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ١٩١.

١٢٤- المصدر السابق ص ١٨٣.

١٢٥- نفس المصدر ص ١٨٩.

١٢٦- نفس المصدر ص ٢١٨.

١٢٧- الهداية إلى فرائض القلوب ص ٢١٨.

ويتكرر هذا المعنى لديه في أكثر من باب من أبواب الكتاب محذراً الإنسان من أن يعتقد أنه يمكنه أن ينفع نفسه أو يضرها دون إرادة الله. أو أن ينفعه الناس أو يضروه دون مشيئة الله تعالى أيضاً.

انظر في ذلك:

باب المحاسبة ص ٣٤٨ حيث يقول:" ولو توهمت الدنيا كلها لك وحدك وقد خلت من أهلها.....الخ."

١٢٨- رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
انظر أيضا: رياض الصالحين ص ٤٣.

١٢٩- Adel Bilderse : Jewish post Biblical History through Great Personalites.P.84.

١٣٠- د. ستتبرج : تاريخ الأدب الإسرائيلي. ص ١٠٥.

١٣١- سالمون يهوذا هو ناشر كتاب الهداية بالأبجدية العربية عام ١٩٠٧ ، أما جولدتسيهر فهو المستشرق الألماني الذي كتب كثيرا في مجال الفكر العربي والإسلامي ، كما كتب المقدمة الألمانية للكتاب.

١٣٢- انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمه د. حسين مؤنس ص ٤٩٦. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.

١٣٣- د. عبد المنعم الحفني: الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ص ٣٤. دار المسيرة. الطبعة الأولى.

١٣٤- البارون كارادوفو: الغزالي. ص ٥١. نقله إلى العربية عادل زعيتر راجعه: محمد عبد الغني حسن. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٩م.

١٣٥- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. مقدمة الدكتور بدوي طبانه ص ٢٧ دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٧.

١٣٦- حرص ابن فاقودة إلى أن ينبه إلى ذلك من خلال مقدمته لهذا الكتاب ، ففي صفحتي ٧ ، ٨ من المقدمة يتحدث عن مجهودات علماء اليهود فيما يتعلق بأعمال الجوارح. أما ما يتعلق بأعمال

القلوب وواجباتها فيقول عنها :" فبحثت عنها فلم أجد فيها كتابا مخصوصا بالعلم الباطن فرأيت هذا العلم أعني علم فرائض القلوب مهملا غير مضبوط في كتاب يحوي أصوله ".
انظر: مقدمة كتاب الهداية. الطبعة العربية. ليدن ١٩٠٧م.

١٣٧- في باب الالتزام في كتاب الهداية يتحدث ابن فاقودة عن تقسيم الشريعة لأعمال الناس على ثلاثة أقسام وهي: أمر ونهي ومباح. ونجده قد قسم الأمر إلى قسمين: أحدهما فرائض القلوب وذكر من هذه الفرائض الخوف من الله ، والحفظ للشرائع ، والتفكر في معجزاته وعجائبه ، والاعتبار لنعمه. كما أنه في نفس هذا الباب أيضا يقول على لسان العقل يخاطب النفس " وفي جملة أخلاقك خلقان وهما الخوف والرجاء ، ولا قوة لك ولا طاقة بك على دفعهما عنك ".
انظر: باب الالتزام. صفحات ١٧٢- ١٧٣.
مع مراعاة أن تعبير الخوف والرجاء هو تعبير الغزالي أساسا نقله عنه ابن فاقودة بنصه.

١٣٨- على الرغم من أن ابن فاقودة لم يفرد أبوابا خاصة لتلك الموضوعات كما فعل الإمام الغزالي في هذا القسم إلا أنه في نفس الوقت لو يهمله ، ولم يدركه فكره بل كان على علم ودراية بذلك ، وضمنه أكثر من باب من أبوابه. بل إنه منذ البداية قد أشار إلى تلك المسائل في مقدمته للكتاب عندما قسم فرائض القلوب إلى أوامر ونواهي وذكر من بين هذه النواهي الحقد والحسد وغيرهما فقال:" وأما نواهي فرائض القلوب فمنها ضد جميع ما ذكرنا. ومنها الحسد والحقد ". انظر: ص ٦ من المقدمة.

١٣٩- إحياء علوم الدين: جـ٤. كتاب التوحيد والتوكل.
انظر أيضا:

رسائل الغزالي ص ٦٣. ضبطه وقدم له: رياض مصطفى العبد الله. دار الحكمة. بيروت.

١٤٠- الهداية إلى فرائض القلوب. باب التوحيد. الفصل الثاني. ص ٤٠-٤١.

١٤١- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ٢٥٥.

١٤٢- إحياء علوم الدين جـ٤ ص ٢٥٥.

١٤٣- الهداية إلى فرائض القلوب. ص ١٨٠- ١٨٢.

١٤٤- أبو حامد الغزالي: رسائل الغزالي. ص ٩٥. ضبط وتحقيق رياض مصطفى العبد الله. دار الحكمة. دمشق. بدون تاريخ.

١٤٥- المصدر السابق. ص ٩٧.

١٤٦- المحاسبي: هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي الزتوفي في بغداد عام ٢٤٣هـ ، ويعتبره الباحثون أول صوفي سني تأكدت ثقافته الواسعة في علم الكلام. كما أنه أول من وضع للبحوث النفسية مكانا في منهجه الذي أظهر فيه أنه من الممكن تحقيق صلة بين أفعال الأعضاء الخارجية ونيّات القلوب ، وكان أيضا ميزانا دقيقا لقلب المؤمن ، حيث كشف أصل الداء في القلوب ، ووصل إلى أن الهوى هو منبعه ومصدره ، وأن هذا الهوى قد استحكم حتى أصبح أصلا لكثير من أمراض النفس كالرياء والعجب ومن أقواله:" أصل الطاعة الورع ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبتها الخوف والرجاء ". انظر تفاصيل أخرى عنه في:
أ- د. عبد القادر محمد: الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ١٧٣ وما بعدها. دار الفكر العربي القاهرة.
ب- د. زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي ص ٨٧. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة.

جـ مقدمة آداب النفوس. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا ص ٢٥-٢٦. دار الجيل. بيروت.

١٤٧- الهداية ص ٤٧٦.

١٤٨- آداب النفوس ص ١٩١.

١٤٩- نفس المصدر ص ١٩٤.

١٥٠- نفس المصدر والصفحة.

١٥١- الهداية ص ١٧٦.

١٥٢- الهداية ص ١٧٧.

١٥٣- إحياء علوم الدين. كتاب التوحيد والتوكل جـ٤.

١٥٤- إحياء علوم الدين. جـ٤ كتاب التوحيد والتوكل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفكرة وغيرها قد نقلها ابن فاقودة إلى كتاب الهداية ص ١٩٠ وما بعدها.

١٥٥- البارون كرادوفو. الغزالي. ص ١٣٠.

١٥٦- يذكر المحاسبي في آداب النفوس قوله:" فالمتوكل توكل على الله في حاجاته كلها من أمور آخرته ودنياه ، وقطع رجاءه ممن سواه ". واعلم أنك والخلق جميعا مضطرون إلى الله في كل حال ، وفي كل حركة ، وكل سكون ، لأنه الغني وحده ، ومن وثق بغير الله فقد رأى أن ملكا أكبر من ملك الله.. ألست تعلم أن الرزاق قد قسم بين عباده معايشهم.... ألا تسمع إلى قول الله عز وجل:" وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله "

الأنعام: آية ١٧. انظر آداب النفوس ص ١٩٢- ١٩٤.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١- القرآن الكريم.
٢- الأحاديث القدسية: الطبعة الرابعة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٩٨٣.
٣- صحيح البخاري: مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. بدون تاريخ.
٤- صحيح مسلم: مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. بدون تاريخ.
٥- إبراهيم سالم بن بنيامين يهودا: كتاب الهداية إلى فرائض القلوب. تأليف الواعظ الديان بحى بن يوسف ابن فاقودة. طبع لأول مرة بالمطبعة البريلية في ليدن ١٩٠٧- ١٩١٢.
٦- إبراهيم موسى هنداوي (دكتور): الأثر العربي في الفكر اليهودي. مكتبة الأنجلو. القاهرة. ١٩٦٣.
٧- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الأول. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت.
٨- ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق د. إحسان عباس. دار الثقافة . بيروت. بدون تاريخ.
٩- ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب. جـ٢. تحقيق د. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة.
١٠- أبو الحسن عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ٥. تحقيق محمود محمد الخضري. مراجعة د. إبراهيم مدكور. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر١٩٥٨. القاهرة.
١١- أبو الطيب المتنبي: ديوان أبي الطيب المتنبي. شرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي. القاهرة.
١٢- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين. تقديم د. بدوي طبانه. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٧.
١٣- أبو حامد الغزالي: رسائل الغزالي. ضبط وتحقيق رياض مصطفى العبد الله. دار الحكمة. دمشق. بدون تاريخ.
١٤- أبو عبد الله الحارث المحاسبي: آداب النفوس. تحقيق عبد القادر عطا. دار الجيل. بيروت. ١٩٨٤.

١٥- أبو محمد بن حزم: الفصل في الملل والنحل جـ٣. عيسى البابي الحلبي. القاهرة.
١٦- إحسان عباس (دكتور): الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. دار العروبة. القاهرة. ١٩٦٠.
١٧- أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلسي الرطيب. بيروت.
١٨- انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية. ١٩٥٥.
١٩- البارون كارادفو: الغزالي. نقله إلى العربية عادل زعيتر. راجعه محمد عبد الغني حسن. دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه. ١٩٥٩. القاهرة.
٢٠- بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث. بيروت. ١٩٣٧.
٢١- جبور عبد النور (دكتور): إخوان الصفاء. العدد السابع من سلسلة نوابغ الفكر. دار المعارف. القاهرة.
٢٢- جودت الركابي (دكتور): في الأدب الأندلسي. دار المعارف. القاهرة. ١٩٨٧.
٢٣- الحسن بن هانئ: ديوان أبي نواس. حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ١٩٥٣.
٢٤- حمد بن عبد ربه: العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان. دار الفكر.
٢٥- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة. ١٩٦٦.
٢٦- دي لاس أوليري: الفكر العربي ومركزه في التاريخ. ترجمة إسماعيل البيطار. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
٢٧- الرسالة القشيرية: تحقيق ودراسة هاني الحاج. المكتبة التوفيقية. بدون تاريخ.
٢٨- زكي مبارك (دكتور): الأخلاق عند الغزالي. المكتبة التجارية. القاهرة.

٢٩- سعديا سعيد الفيومي: ترجمة الأسفار الخمسة إلى العربية. طبعة ديرنبورج. باريس. ١٨٩٨.
٣٠- سليم شعشوع: العصر الذهبي. مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر. شفاعمرو. ١٩٧٩.
٣١- سليمان بن جبيرول: رسالة في إصلاح الأخلاق. نيويورك. ١٩٠٥. مع ترجمة باللغة الإنجليزية.
٣٢- الشهرستاني: الملل والنحل. القسم الأول. عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة.
٣٣- عبد الرازق قنديل (أ. دكتور): الأدب العبري في الأندلس. جـ١. الشعر. القاهرة. ١٩٩٠.
٣٤- عبد الرازق قنديل (دكتور): الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي. مركز دراسات الشرق الأوسط ودار التراث. ١٩٨٤. القاهرة.
٣٥- عبد القادر محمود(دكتور): الفلسفة الصوفية في الإسلام. دار الفكر العربي. القاهرة.
٣٦- عبد المنعم الحفني(دكتور): الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية. دار المسيرة.
٣٧- عمر الدسوقي: إخوان الصفاء. دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة.
٣٨- علي سامي النشار(دكتور): الفلسفة اليهودية وتأثرها بالفكر الإسلامي. منشأة المعارف. الإسكندرية. ١٩٧١.
٣٩- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مؤسسة جمال للنشر. بيروت. لبنان.
٤٠- محمد متولي الشعراوي: أسماء الله الحسنى.جـ١. دار أخبار اليوم. ١٩٩٣.
٤١- مروان ابن جناح القرطبي: اللمع وهو الجزء الأول من كتاب التنقيح.
٤٢- ول ديورانت: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٦٤.

المعاجم ودوائر المعارف:

١- ابن منظور: لسان العرب.
٢- دائرة المعارف الإسلامية.

ثانيا: المراجع العبرية:

1- א. צפרוני: ספר חובות הלבבות בתרגומו של ר' יהודה אבן תבון. הוצאת מחבר לספרות בסייוע מוסד הרב קוק.

2- אהרון מירסקי: שירי הספרדים משער הבחינה של ספר חובות הלבבות לר' בחיי אבן פקודה. תרביץ. כרך.נ. הוצאת ספרים ע"ש י"ל תשמ"א.

3- בחיי בן יוסף אבן פקודה: ספר חובות הלבבות בתרגומו של ר' יהודה אבן תבון. מגה ומתקן לפי המקור הערבי עם מבוא והערות מאת ד"ר אץ צפרוני.

4- חיים שירמן: השירה העברית בספרד ובפרובאנס. חלק שני. הוצאת מוסד ביאלק. תשי"ל.

5- חיים שירמן: שירים חדשים מן הגניזה. האקדמיה הישראלית למדעים. ירושלים. תשכ"ו.

6- יהושע בלאו: דקויות בניתוח הסגנון הערבי בכתבי רב סעדיה גאון ושמואל בן חפני. פעמים. מס' 23.

7- יוסף בכה"ר דוד קאפח: תורת חובות הלבבות מקור ותרגום. ירושלים. תשל"ג. 1973.

8- יוסף דן: הסיפור העברי בימי הביניים. הוצאת כתר. ירושלים. 1974.

9- יצחק אבישור: הספרות העממית של יהודי בבל בערבית- יהודית. פעמים. מס' 3. סתיו. תש"ם.

10- ישראל ציונברג: תולדות ספרות ישראל. הוצאת יוסף שרברק. בע"ם. תל- אביב.

11- צבי קרניאל: חובות הלב. 900 שנה לחובות הלבבות. מאמר. עתון דבר. יום שישי באייר. תשמ"א. 15 במאי. 1981.

12- שאול שקד: בין יהדות לאסלאם. כמה עניינים בתחום הדת העממית. פעמים. קרן תשנ"ך.

13- שמחה בונם: עמודי המחשבה הישראלית. חלק שני. ירושלים. תשי"ד.

١٤- תנ"ך.

المعاجم:

1- אברהם אבן שושן: מילון חדש.
2- יהודה גור: מילון.

المراجع الأجنبية:

1- Adel Bilderse: Jewish post Biblical History through great Personalites. The union of American Hebrew congregation. 1918.
2- David Kaufmann: De theologie des Bahia ibn pakoda Gesamn shriften 11, 1910 Frankfurt.
3- Halken, A.S: Judeo- Arabic Literature in L. Finkelstein, the Jews. Their History,culture and Religion vol . III. philadelphia. 1949.
4- L. Margolis, and Alexander Marx: History of the Jewish People. A Temple Book Athenium 1969.N.Y.
5- St.Wise: the Improvement of Moral Qualities Columbia University series N.Y.1905.
6- The Interpreters Dictionary of the Bible supplementary Volume.An Illustreted Encyclopedia Abingdon. 1979.
7- Waxman,M.: the History of the Jewish Literature N.Y.1930.
8- Encyclopedia Judaica.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

المقدمة .....أ- حـ

المبحث الأول
بحيا بن فاقودة وعصره

اليهود فى الأندلس ..... (١-٩)

ابن فاقـــودة..... (١٠-١٦)

ثقافتـــــــه .....(١٧-٢٥)
هوامش المبحث الأول..... (٢٦- ٣٤)

المبحث الثاني
كتاب الهداية إلى فرائض القلوب
المحتوى- الهدف

(٣٥- ٥٨)

هوامش المبحث الثاني ..... (٥٩- ٦٦)

المبحث الثالث

المصادر العربية والإسلامية في كتاب الهداية

الألفاظ والمصطلحات العربية والإسلامية .....(٦٧- ٦٨)
١- المصادر اللغوية والأدبية .....(٦٨- ٧٣)
٢- المفردات الإسلامية .....(٧٤- ٧٧)
٣- المأثورات الإسلامية .....(٧٨- ٨٥)

ابن قاقودة والفرق الإسلامية
١- إخوان الصفا .....(٨٦- ٩٣)
٢- الفرق الأخرى .....(٩٣- ٩٨)

ابن قاقودة والأحاديث القدسية والنبوية
١- الأحاديث القدسية..... (٩٩- ١٠٢)
٢- الأحاديث النبوية .....(١٠٣- ١١٧)
أ. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ب-الحلال والحرام والشبهات .
جـ-التوبة والاستغفار .
د-التوكل على الله والاعتماد عليه .

ابن قاقودة وعلماء المسلمين..... (١١٨- ١٣١)
هوامش المبحث الثالث .....(١٣٢- ١٥٦)
المراجع .....(١٥٧- ١٦٣)
أولاً: المراجع العربية .....(١٥٧- ١٦٠)

ثانياً: المراجع العبرية .....(١٦١- ١٦٢)

ثالثاً: المراجع الأجنبية .....(١٦٢)

الفهرس.....(١٦٣- ١٦٥)

إصدارات المركز :

أولاً السلسلة الدينية والتاريخية

١- ظاهرة النبرة الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
٢- الحساب القومى	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
٣- الشخصية الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
٤- الصهيونية الدينية	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
٥- الحركة الصهيونية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
٦- المجتمع الإسرائيلى	ترجمة د. / محمد أحمد صالح
٧- اسلام حقائق اور الزامات	ترجمة د. / يوسف عامر
٨- البعد الدينى للصراع العربى الإسرائيلى	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
٩- اتجاهات التراجم والتفاسير القرآنية فى اللغة الأردية	تأليف أ.د / سمير عبد الحميد إبراهيم
١٠- الجنيزا والمعابد اليهودية فى مصر	تأليف أ.د/محمد خليفة حسن والأستاذ النبرى سراج
١١- سياسة إسرائيل فى طرد السكان العرب	ترجمة وتعليق د. محمد أحمد صالح
١٢- الرموز الدينية فى اليهودية	تأليف أ.د/ رشاد عبد الله الشامى
١٣- الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى الحاضر والمستقبل	تأليف أ.د/ أحمد فؤاد متولى ود. هويدا محمد فهمى
١٤- المشكلة الكردية	ترجمة وتعليق / أ.د محمد علاء الدين منصور
١٥- الصراع الدينى العلمانى داخل الجيش الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد محمود أبو غدير
١٦- الأقليات المسلمة والصراعات فى الكومنولث	تأليف د. / هويدا محمد فهمى
١٧- مستوطنة معالية أدوميم وانتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى	ترجمة د. / عبد الوهاب محمود وهب الله
١٨- يهود مصر «دراسة فى الموقف السياسى»	تأليف د. / محمود عبد الظاهر .
١٩- فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد جلاء إدريس
٢٠- التركمان بين الماضى والحاضر	ترجمة أ.د/ عبد العزيز محمد عوض الله
٢١- اليهودية	تأليف أ.د. محمد بحر عبد المجيد .

٢٢- حرب أكتوبر وأزمة المخابرات الإسرائيلية	ترجمة من العبرية أ.د. محمد محمود أبو غدير.
٢٣- مستقبل الصراع على فلسطين	تأليف د.عبد الله بن عبد الرحمن الربيعى
٢٤- الحياة الحزبية فى تركيا	تأليف أ.د. / عبد العزيز عوض
٢٥- دراسات فى جنيزا القاهرة	ترجمة أ. النبوى جبر سراج
٢٦- فيروس التعصب	ترجمة أ.د./ عبد الوهاب وهب الله
٢٧- اليهودية العلمانية	ترجمة د. / أحمد كامل راوى
٢٨- علاقة الإسلام باليهودية رؤية إسلامية فى مصادر التوراة الحالية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
٢٩ - التطور الديمقراطى فى تركيا الحديثة والمعاصرة	تأليف أ.د/ الصفصافى أحمد المرسى
٣٠ - المكابيون الثالث والرابع ترجمة من اليونانية ودراسة تاريخية	ترجمة وتقديم وتعليق أ.د/ أوفيليا فايز رياض مراجعة وتقديم أ.د/ محمد خليفة حسن

ثانيا: السلسلة الأدبية واللغوية

١- جامع التعريب	تحقيق وشرح نصوص أونال قره أرسلان
٢- أدب المهجر الشرقى	تأليف د. / محمد عبد الرحمن الربيّع
٣- الكلام والفكر والشىء	ترجمة د. / محمد صالح الضالع
٣- قاموس المختصرات العبرية	إعداد د. / شعبان محمد سلام
٤- الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية	نقله إلى العربية د./ أحمد محمود هويدى
٥- حكايات أيسوبوس	ترجمة ودراسة د./ صلاح محجوب
٦- المسرح الإيرانى	تأليف / د. عبد الوهاب علوب .
٧- الأدب الفارسى عند يهود إيران	ترجمة / أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
٨- معجم المصطلحات الفلسفية	إعداد / أ.د. محمد نور عبد المنعم
٩- الشخصية الفلسطينية فى القصة العبرية القصيرة	تأليف أ.د/ محمود على صميدة
١٠- ضمير الشأن مسائله ومواطنه	تأليف : د.فاطمة عبد الرحمن رمضان حسين
١١ - المعجم التأصيلى للفعل الناقص فى اللغات السامية	إعداد أ.د. عمر صابر عبد الجليل

ثالثا: فضل الإسلام على اليهود واليهودية

١- اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية	تأليف أ.د/ عطية القوصى
٢- التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية	ترجمة أ.د/ محمد سالم الجرح
٣ - المحاضرة والمذاكرة	نقله إلى العربية أ.د/ عبد الرازق قنديل
٤- التأثيرات العربية فى البلاغة العربية	تأليف د.شعبان محمد سلام
٥- الشعر العبرى الأندلسى	تأليف أ.د/ عبد الرازق قنديل
٦- التأثير الإسلامى فى التفاسير اليهودية الوسيطة	ترجمة أ.د/ أحمد هويدى مراجعة أ.د/محمد خليفة حسن
٧ - التأثير الإسلامى فى الفكر الدينى عند طائفة القرائين	تأليف / أ.د. محمد جلاء إدريس
٨ - الآراء الكلامية لموسى بن ميمون والأثر الإسلامى فيها	تأليف / د. حسن حسن كامل إبراهيم

رابعا: سلسلة قضايا إيرانية

١- قضايا إيرانية (العدد الأول)	إعداد / أ.د. محمد نور عبد المنعم
٢- التقرير الاستراتيجى الإيرانى (العدد الثانى)	تحرير وإشراف د. مدحت أحمد حماد
٣- بحر الخزر المشاكل السياسية والاقتصادية	إشراف / أ.د. محمد نور عبد المنعم
٤- حوار الحضارات وجهة نظر إيرانية	إشراف / أ.د. محمد نور عبد المنعم
٥- بحوث فى العلاقات الإيرانية الخارجية	ترجمة / أ.د. محمد نور عبد المنعم

خامسا: سلسلة الحوار بين الأديان والتقاء الحضارات

١- حوار الحضارات وجهة نظر إيرانية	إشراف / أ.د. محمد نور عبد المنعم
٢- المسلمون والحوار الحضارى مع الآخر : نقد إسلامى لنظرية صراع الحضارات.	تأليف / أ.د. محمد خليفة حسن
٣- علاقة الإسلام بالأديان الأخرى .	تأليف / أ.د . محمد خليفة حسن

سادسا: مجلة رسالة المشرق

الأعداد :

الأول ١٩٩١ حتى الثانى عشر ٢٠٠٣

almaktabeh
مكتبة المهتدين

يتناول هذا العمل دراسة التأثيرات العربية والإسلامية فى كتاب الهداية إلى فرائض القلوب لابن فاقودة الهودى الأندلسى ، حيث تناول الكتاب حياة ابن فاقودة فى البيئة الإسلامية الأندلسية ، وأوضاع اليهود الدينية والاجتماعية والفكرية مع التركيز على اختلاف المؤرخين حول حياته وفكره بسبب ندرة المعلومات عن سيرته ، وكذا التعريف بطبعات كتاب الهداية إلى فرائض القلوب ونشراته المختلفة وترجماته المتعددة .

وبعد هذا التعريف بالمؤلف وبكتابه انطلق العمل إلى تحديد المؤثرات الإسلامية وذلك من خلال التعريف بالمصادر العربية والإسلامية التى اعتمد عليها ابن فاقودة وتأصيل مادته وردها إلى مصادرها في الثقافة الإسلامية والتى لم يذكرها ابن فاقودة فى كتابه .

وقد تمكن المؤلف من تحديد الألفاظ والمصطلحات العربية والإسلامية ، والمصادر اللغوية والأدبية ، وتحديد المقولات والمؤثرات الإسلامية والأحاديث النبوية والأحاديث القدسية التى استفاد منها ابن فاقودة . كما حدد العمل علاقة ابن فاقودة ببعض الفرق والتيارات الإسلامية ومنها علاقته بإخوان الصفا ، وكذلك علاقته ببعض العلماء المسلمين ، وتأثره خاصة بفكر أبى حامد الغزالى والحارث المحاسبى وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامى فى مجالات الدين والتصوف والأخلاق